

كتاب اليوم

معركة بين الدولة والمثقفين

فتحي غانم



بقلم :

فتحى غانم

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	٢٥	درهم
لبنان	٢٥٠٠	ليرة
الأردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٧٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	٣٥	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جك
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٢٥ دولارا

أمريكيا أو ما يعادله

أوربا وأمريكا ٣٠ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٠ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

كتاب اليوم

يصدر عن دار أخبار اليوم أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

□ عدد سبتمبر ١٩٩٥ □

التصميم الداخلى : عاطف مصطفى

الغلاف : خالد فرحات

١

كيف سيطرت المخابرات والمباحث على عقول المصريين ؟



«« هل فقدنا عقولنا ؟!
هل انشغلنا بمصادرة الأموال والودائع فى البنوك وتأميم المصانع والشركات ولم ننتبه إلى مصادرة العقول وتأميم الأفكار ؟! »»

إن السيدة السويدية، مارينا ستاك، شغلت نفسها على مدى سنوات للإجابة عن هذه الأسئلة، وقد قابلتها فى مصر أكثر من مرة، وهى تسأل وتحاور وتناقش، كما قابلها عشرات من الكتاب المصريين من بينهم ـــ طبعا ـــ نجيب محفوظ، وإدوار الخراط، وصنع الله إبراهيم، وإبراهيم عبدالمجيد، ويوسف إدريس، ولويس عوض، وعلى شلش، وجمال الغيطانى، ويوسف القعيد، ومحمود السعدنى، وعبدالحكيم قاسم وغيرهم وغيرهم من كتاب وأدباء معروفين ومشهورين، ثم انتهت السيدة مارينا من تأليف كتاب عنوانه « حدود حرية الخطاب الأدبى فى مصر فى عهدى عبدالناصر والسادات» وقد طبعت جامعة ستوكهولم الكتاب وتقدمت به المؤلفة للحصول على شهادة الدكتوراه ، وكان الدكتور صبرى حافظ الذى تولى المناقشة لهذه الدراسة الشاملة لما نستطيع أن نصفه بحق أزمة التعبير وحرية الفكر المصرى منذ قيام الثورة عام ١٩٥٢. والكتاب يشمل عدة فصول منها فصل عن الحكم العسكرى فى مواجهة حرية الخطاب منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٨١. ومصرع الرئيس السادات. وفصل هام عن حركة النشر تحت رقابة الدولة، وفصل عن الكتاب الذين اعتقلوا أو حبسوا أو

سجنوا من قبل يوليو ١٩٥٢ وحتى أكتوبر ١٩٨١.

وأذكر بهذه المناسبة ان السيدة مارينا ستاك كانت شديدة الحرص على مقابلة كل واحد من هؤلاء الكتاب مادام على قيد الحياة، وكانت تستعين بكمبيوتر يسجل كل الأسماء، وكانت حريصة على لقاء المرحوم صلاح حافظ، ولجأت إلىّ لأساعدها على مقابلته. وكان صلاح فى السويد لعلاج السرطان، فلما سافرت إليه من القاهرة إلى السويد، كان قد غادر السويد إلى القاهرة، فعادت لتلتقى به ولتطابق معلوماته بمعلومات حصلت عليها من الآخرين الذين زاملوه فى السجن أو المعتقل، وكان اهتمامها كبيرا بروايتين كتبتهما، الأولى « تلك الأيام » عن الإرهاب السياسى، وأحد أبطالها أستاذ جامعى من كبار المعارضين كلفته الرئاسة بالاشتراك فى كتابة الميثاق الوطنى، ولكنه كان مشغولا بخيانة زوجته، وكان يدرس الإرهاب السياسى من خلال مناقشات مع إرهابى سابق، لكنه متهم بإثارة الإرهابى ليقتل زوجته.

أما الرواية الثانية، فهى « حكاية تو » عن تعذيب المعتقلين السياسيين حتى الموت، وكانت تسألنى عن أسباب نشر رواية «تلك الأيام » فى طبعة أولى، وقد حذف نصفها، ثم أعيد طبعها كاملة فى محاولة للتعرف على وسائل محاصرة الكاتب بطرق غير مباشرة، مثل اختصار الكتاب قبل نشره، أو تأجيل نشره كما حدث بالنسبة لرواية « حكاية تو » التى ظلت ثلاثة عشر عاما منذ ١٩٧٤ عندما نشرتها فى حلقات بروزاليوسف حتى ١٩٨٧ عندما اتصل بى الصديق مكرم محمد أحمد، والصديق مصطفى نبيل لنشرها فى روايات الهلال، وكان مكرم قد تعرض لمحاولة اغتيال وفكر فى أنه قد آن الأوان لتحرير القيود على النشر لمواجهة قوى الظلام .

وهناك فصل فى الكتاب عن هرب الكتاب إلى بيروت ودمشق

وبغداد فى عهد عبدالناصر من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠، وفى عهد السادات من ١٩٧١ إلى ١٩٨٠، وفى هـذا الفصل قائمة بأسماء الكتاب المصريين الذين نشروا أعمالهم خارج مصر فى عهد السادات .

تناولت مناقشات السيدة مارينا مع الكتاب المصريين أسئلة بالغة الأهمية، ما الذى يمكن نشره ومتى؟ ومن الذى فى يده قرار النشر، ومن الذى يقرر ماهو كفر وإلحاد. وماهو دور الرقابة الرسمية والرقابة غير الرسمية والضغوط التى تقع على الكتاب والمؤلفين وأنواع العقبات التى يتعرضون لها وتحد من حريتهم فى التعبير، وتقول السيدة « مارينا » أنها عندما كانت تلقى مثل هذه الأسئلة شارحة أن هدفها البحث عن حرية التعبير، كان الكتاب يواجهونها بالضحكات قائلين: إن البحث ليس عن حرية التعبير، بل عن القيود على حرية التعبير، فهذا هو حالهم، لكن دراسة العقبات والقيود التى واجهها الكتاب فى نشر أعمالهم خلال ثلاثين عاما من حكم عبدالناصر والسادات، هى بالضرورة دراسة لحرية التعبير، ولابد أن نعترف بأن هناك قدرا من الحرية للكتاب حتى فى أشد النظم استبدادا، وهى حرية مكفولة على الأقل للبعض أو القلة ومع ذلك لم يفقد كتاب مصر ـ فى رأى السيدة مارينا ـ حريتهم تماما، لكنهم واجهوا خطة شاملة للسيطرة التامة على ما يكتبونه أو ينشرونه، وامتدت السيطرة إلى كل مطبعة فى مصر. سواء كانت قطاعا عاما أو خاصا. ولم يشهد الكتاب فترة بلا رقابة رسمية طوال الثلاثين عاما سوى سبعة أشهر. على نحو ما سوف نتبينه .

وعند قراءتى لكتاب السيدة مارينا ، تذكرت أحداثا بالذات كنت شاهدا عليها لذلك سمحت لنفسى أن أعيد صياغة ما تذكره بأن أضيف إليه تجربتى الخاصة ، فما كان بالنسبة لها قوائم بأسماء وأرقام إحصائية ، كان بالنسبة لى مشاهد إنسانية ، فيها قلق

وحيرة وغضب ونفاق وبكاء بالدموع وهرب من البلاد ولقاءات فى الهجرة ، وأسئلة فى شوارع لندن أو باريس أو الكويت عن الأحوال فى مصر ولماذا لا يكتب فلان، ولماذا اعتقل فلان.

واستمرت هذه الحياة المفعمة بالتوترات والأسئلة الفضولية أو الشامتة أو المشفقة طوال مرحلة ثورة تولت السلطة فيها القوات المسلحة، ألغت الأحزاب القائمة والبرلمان وفرضت على الصحافة سيطرة ورقابة الدولة لتضمن السلطة قوة مطلقة تبدأ من قمة النظام الحاكم لتتغلغل فى جميع مستويات اتخاذ القرار حتى وصل الأمر إلى اختيار رؤساء تحرير الصحف وأعضاء مجالس إدارات المؤسسات الصحفية من أهل الثقة، بالاضافة إلى رقابة رسمية موزعة بين وزارتى الاعلام والثقافة، ثم هناك رقابة عسكرية، ووظائف رقابية تقوم بها أجهزة أخرى كالمباحث وأمن الدولة.

ولقد أحاطت هذه القوى جميعها بالكتاب وحاصرتهم من كل جانب، حتى انتشرت النكتة التى أطلقها الشاعر مأمون الشناوى، ورددها شقيقه كامل الشناوى أن «مامخابرات إلا بنى آدم» وأصبح الصحفيون فى مؤسساتهم والكتاب فى المقاهى والمنتديات يتعاملون بافتراض أن الأصل فى الصحفى أو الكاتب أنه عميل للمباحث أو المخابرات وأن وجوده فى مهنته يرتبط بكتابة التقارير عن زملائه.

وكانت إلى جوار كل هذه الضغوط دوائر دينية تشن حملات بين وقت وآخر، مهاجمة أعمال كبار كتاب مثل نجيب محفوظ أو عبدالرحمن الشرقاوى، أو كتاب صغار لم يسمع عنهم أحد. وكان النظام يشجع هذه الحملات أحيانا ويستغلها لضرب كاتب كحالة عبدالرحمن الشرقاوى الذى تعرض لهجوم مزدوج باعتراضات دينية على روايتى الحسين ثائرا، والحسين شهيدا، واعتراضات

سياسية فى عهد عبدالناصر تستريب فى ولائه للثورة. أو حالة نجيب محفوظ فى أولاد حارتنا، فلا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد نسبة الاعتراض باسم الدين ضد الرواية والكاتب، ونسبة الاعتراض باسم المنافسة الصحفية ضد الأهرام ورئيس تحريرها محمد حسنين هيكل الذى نشر الرواية، وهل كانت صرخات الاحتجاج موجهة من قراء للراوية، أم من أعداء لهيكل من داخل السلطة ومن الشلل الملتفة حول عبدالناصر. تريد أن تسقط هيكل أو على الأقل تحرجه وهى لم تقرأ حرفا من رواية أولاد حارتنا.

وعلى أية حال تقلبت حرية التعبير، حسب صراعات داخلية على السلطة، وبسبب اتجاهات سياسية خارجية، فى اتجاه أمريكا أو روسيا أو عدم الانحياز أو القومية العربية أو الأمة الإسلامية، ولاشك أن أسلوب كل من الرئيسين عبدالناصر والسادات كان مختلفا نحو الكتاب والصحفيين، وكانت هناك سنوات استرخاء وسنوات توتر، لكن عند الدراسة المتعمقة، سوف نجد أن كلا العهدين يشتركان فى موقف واحد، وفى خطة واحدة للسيطرة على الكتاب والصحفيين والحركة الأدبية، أى السيطرة على عقول المصريين، وغير صحيح أن هناك خصومة بين العهدين فى مجال الرقابة، وإذا كانت هناك خلافات سياسية فى مواقفهما إلا أنها لاتخفى التشابه بينهما فى مجال السيطرة على حرية التعبير، ولذلك نرى أن البداية الصحيحة للتحولات طرأت على حرية التعبير والفكر فى مصر، فى بداية الثورة التى قادتها القوات المسلحة.

ولقد ورث السادات القيود التى فرضها عهد عبدالناصر على حرية التعبير والسيطرة على الصحافة والنشر، وهى القيود التى كانت مقدمة للانهيار الثقافى بعد حرب ١٩٦٧، ثم عهد السادات. وهذا يفسر لنا ماقد يبدو غريبا ومتناقضا، فقد شهدت مصر

ازدهارا أدبيا بلغ ذروته أيام الرقابة والاضطهاد والاعتقالات فى عهد عبدالناصر. ثم جاء السادات وألغى الرقابة الرسمية، ومع ذلك ظهرت عوامل التفكك والخمود الأدبى والثقافى.. وكان ماأعلنه السادات عن إلغاء الرقابة يختلف تماما مع ماجرى فى التطبيق.

والآن نشرع فى دراسة موضوعية تقوم على الوقائع والاحصائيات لمعرفة إجراءات القهر والرقابة، ولقد تناولت السيدة مارينا ستاك الكتاب الذيت كتبوا رواية واحدة على الأقل، أو مجموعة قصص قصيرة ونشرت بين عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٧٤، أو بعد ذلك بفترة قصيرة، وتابعت أحوال هؤلاء الكتاب واحدا واحدا، من تعرض للاعتقال. ومن داخل السجن، ومتى ولماذا؟ وماذا كانت عليه احتمالات النشر بعد الإفراج عنه. ونتيجة وضع أسمائهم فى قائمة سوداء، أو إيقافهم عن العمل لفترات طويلة مما دفع بعضهم إلى اختيار النفى أو الهجرة، أو البحث عن ناشرين خارج مصر، وهى الظاهرة التى بدأت فى الانتشار منذ بداية السبعينيات.

وتلاحظ السيدة مارينا ستاك. إن كلا من عهدى عبدالناصر والسادات كان محل اهتمام كبير شرقا وغربا من كتاب ومؤرخين تناولوا سياساتهما الخارجية، والصراع العربى الإسرائيلى، ودور مصر فى العالم العربى والعالم الثالث، وعلاقة عبدالناصر أو السادات بأمريكا أو الاتحاد السوفيتى. وهناك كتب كثيرة تناولت شخصيتيهما كزعيمين، وماهى آراؤهما السياسية وأسلوبهما فى ممارسة الحكم، لكن لايوجد أدب أو كتب تتناول موقفهما من حرية التعبير والفكر، قد توجد إشارات عابرة أو هامشية، وتسجيل لموجات الاعتقال، لكن بلا دراسة لتأثير هذه القيود على الحياة الثقافية والاجتماعية، وربما كان كتاب أنور عبد الملك عن

السنوات العشر الأولى لعهد عبدالناصر «مصر والمجتمع العسكرى» هو أقرب الكتب لتناول الحياة الثقافية المصرية والمناخ الثقافى فى ظل القيود وقهر الصوت المعارض، كما أن حالات القهر فى عهد السادات لم يتعرض لها الكتاب الأوروبيون.

وعندما أعود بذكراتى إلى تلك الأيام أرى أن ماكتبته عن الصحافة والمثقفين فى« الرجل الذى فقد ظله» و«زينب والعرش»، قطرة فى محيط، ومازالت مشاهد محفورة فى ذاكرتى أضيق بها حتى اليوم لأنها تذكرنى بحالة الانهيار ومناخ الضياع الثقافى.

اذكر الزميل الصحفى الذى أصبح رئيسا لمجلس إدارة وكان سببا فى دخولى مبنى المخابرات العامة لأول مرة فى حياتى بناء على استدعاء لى، ليفاجئنى بأنه كتب تقريرا ضد إحسان عبدالقدوس يحتوى على أكثر من عشرين اتهاما ويستشهد بى، وواجهته أمام المسئول الذى طلب سؤالى بأن تقريره كاذب ليس فيه اتهام واحد صحيح. وكان قد عرف بخلاف وقع بينى وبين إحسان فى العمل، فتصور أنى سأقف إلى جانبه ضد إحسان، وجاء يوسف السباعى يقول لى وهو فى حالة استياء من موقف صاحب التقرير: إن مسئول المخابرات اتصل به، وامتدح موقفى، لكنى لاامتدح موقف أجهزة الدولة التى عرفت أخلاق هذا الصحفى ثم وضعته فى منصب رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة، ولا أنسى يوم صدر القرار بفصل عبدالستار الطويلة، ومفيد فوزى من صباح الخير، وكنت رئيسا لتحريرها، وحالة الوجوم والفزع التى سادت بين المحررين، والخوف فى العيون والأيدى ترتعش وهى تمسك بالقلم، والهواجس والريب، ومفيد فوزى يستقبلنى فى بيته شاحب الوجه لايعرف سببا لفصله، ولا يرى أملا فى النجاة إلا فى صديقه عبدالحليم حافظ وعلاقته بالمشير.

وهكذا كانت تصاغ القيم والأولويات لشباب الصحفيين، اذكر عبدالله الطوخى مسافرا معنا فى وفد إلى تونس خروجه من مطار القاهرة يحتاج إلى مراجعات، وعودته إلى القاهرة تحتاج إلى نداء على اسمه بالميكروفون وسط قاعة تسلم الحقائب لتستجوبه أجهزة الأمن، دخل اسمه القائمة السوداء ولم يخرج منها منذ قبض عليه فى أغسطس ١٩٥٣، وحكم عليه بالسجن عامين بتهمة الشيوعية، أقسم أنه طلق السياسة منذ خرج من السجن لكن مخالب السيطرة مازالت تمسك به لأنه كاتب فى رأسه أفكار، لكن أية أفكار تنطلق فى هذا المناخ.

إن ماوراه محمود السعدنى ساخراً شاهدته باكيا فزعا يوم جاء من الكويت إلى بغداد مطرودا محروما من سيارته.. ينتقل مع زوجته وعياله من بلاد الله إلى بلاد الله يروى ساخرا باكيا عن أجهزة تطارده لانتمائه إلى حزب «زمش» أو «زى ماأنت شايف».

إن مئات المشاهد التى نواجهها فى الإنسان فى ملامح وجهه وبريق عينيه، وبحة صوته، ولهجته وحركة يديه، تفضح لنا كيف كان القهر يلتهم كل قدرة على التفكير، جمال كامل الرسام الكبير خارجا من المعتقل لايعرف حتى مات سبب اعتقاله.

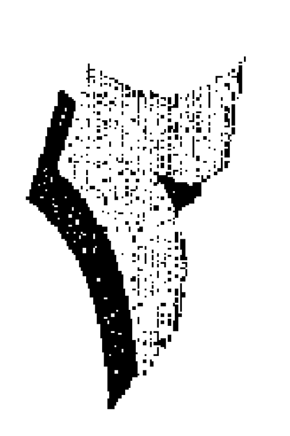
هذه حالات بلغت من الشذوذ مايفوق حالات التعذيب المادى الجسدى الذى ينتهى بموت أو تشويه جسد كاتب يرفض الاستسلام فيحافظ بموته وباستشهاده على كرامة أفكاره.

كانت السلطة قد دخلت معركة ضد حياة المثقفين بتياراتها المختلفة إسلامية يسارية ليبرالية حزبية، وكان العدو الفكرى أمامها يشمل حسب الوضع القائم فى سبتمبر ١٩٥١ أى قبل قيام الثورة بعشرة أشهر، نشاطا صحفيا غير عادى، إذا كان قراء القاهرة يستقبلون كل يوم واحداً وعشرين صحيفة، ويختارون كل

أسبوع بين مائة وواحد وعشرين مجلة أسبوعية، ولهم الحق فى قراءة مائة واثنين وسبعين مجلة شهرية أو نصف شهرية، أو تصدر حسب ظروف خاصة، ولقد بدأت المعركة بعد شهر عسل قصير انقضى بعد ثلاثة أسابيع منذ قيام الثورة وكانت بداية حركة قمع لإضراب عمال كفر الدوار حيث سقط ٦ قتلى و٨ جرحى. وصدر الحكم بالإعدام على اثنين من قادة الإضراب، هما مصطفى خميس، ومحمد حسن البكرى بعد محاكمة عسكرية، وتم تنفيذ الحكم شنقا فى اليوم التالى لصدور الحكم فى نفس الموقع الذى تظاهر فيه العمال.

وكان لهذا الحكم تأثيره المباشر فى اختفاء جانب من الحركة الثقافية تحت الأرض فورا وهى الحركة الماركسية، وبعد قليل كانت بقية الأحزاب السياسية تواجه نفس المصير بعد ضربات غلب عليها أول الأمر التردد من جانب مجلس قيادة الثورة، لأن الضربات كانت توجه إلى من ساهموا فى قيامها وأيدوها.. سواء كانوا من الشيوعيين وحركة «حدتو» أو الليبراليين مثل إحسان عبدالقدوس الذى تعرض للحبس فى السجن الحربى عندما ظن أن علاقته بقيادة الثورة تسمح له بالكتابة عنهم بحرية ويقول إنهم «جمعية سرية تحكم مصر».

لقد فقد الضباط ثقتهم فى المثقفين وسقطت شعبيتهم إلى الحضيض، ولم يتصور أحد أنه بعد عامين سوف يظهر جمال عبدالناصر كبطل حقيقى فى مصر والعالم العربى.



تفريغ العقول وتطهير الأحزاب ثم إلغاء العقول والأحزاب



ºº نعم أصبح جمال عبد الناصربطلا حقيقيا وزعيما لمصر وللعالم العربى بلا منازع ولكنه وهو يتقدم صاعدا درجات سلم الزعامة كان قد أفرغ عقول المصريين من أفكارهم السابقة التى اعتادوا عليها وذلك لتأمين الثورة وتأمين النظام. ولم يضع فى اعتباره ان الطمأنينة والأمان الذى ثمنه عقول فارغة لابد أن ينتهى إلى ردود فعل فى حجم الكارثة. ºº

بعد عامين من الثورة كنا جميعا نهلل لعبدالناصر الزعيم الذى فتح لنا أبواب التحرر من دوائر الاستعمار بمشاركته فى مؤتمر باندونج، والذى قرر أن يشترى السلاح من تشيكوسلوفاكيا متحديا احتكار السلاح الأوروبى الغربى والأمريكى. والذى فتح أسواقا للقطن المصرى فى الصين والاتحاد السوفيتى فلم تعد حقول القطن فى مصر صنيعة تابعة لمصانع النسيج فى انجلترا. ثم هو الذى وجه ضربة المعلم فى يوليو ٥٦ بقرار تأميم قناة السويس.

وفى تلك اللحظة ثبتت دعائم زعامة عبدالناصر فى تاريخ مصر والعالم العربى والعالم الثالث، وهى زعامة لاشك فيها، ولقد التف حولها الشعب وقد نسى فى لحظات السنوات التى خاضتها الثورة منذ قيامها فى يوليو ١٩٥٢، والضربات التى وجهتها للأحزاب وللمثقفين وللصحافة ولكل أفكار معارضة. فإذا كانت تلك الضربات انتهت إلى تأميم قناة السويس وتحرر الجيش من

ضغوط السلاح الانجليزى وحرية الفلاح المصرى فى تسويق محصوله الأول وهو القطن. والثمن مقبول ومدفوع. وعلينا أن نبدأ عهدا جديدا.

لكنه بكل المقاييس كان ثمنا باهظا. ولقد دفع الشعب المصرى القسط الأول من الثمن عندما لم تنسحب القوات المسلحة إلى ثكناتها وقررت أن تتولى بنفسها عمليات البناء.. وقررت أن تتولى بنفسها مهمة التفكير. وكانت النكتة المشهورة التى أطلقتها أم كلثوم انها تنصح أى أب حريص على مستقبل ابنه أن يسعى لإدخاله الكلية الحربية ليتخرج الطالب ويعمل فى أى عمل يشاء طبيبا جراحا أو مهندسا أو مدير بنك أو كاتبا ورئيس تحرير أو قاضيا يصدر الأحكام على الناس فى مجلس القضاء.

أما مجلة روزاليوسف فكانت لها طريقتها فى التهكم على تولى السلطة العسكرية كل مهام البناء. فعندما كان البعض يقولون إن هناك داخل السلطة مثقفين من غير ضباط الجيش مثل الشيخ أحمد حسن الباقورى. كانت روزاليوسف تقول إن اسمه أ.ح. الباقورى. أى أركان حرب الباقورى، ولهذا شارك معهم فى الوزارة. وكانت الرقابة تفزع من مثل هذه التعليقات وكانت هناك ضجة عندما نشرنا مقالا بقلم أ.ح. الباقورى.

ومن النكت التى مازلت أذكرها ان حفلا أقيم لانتخاب ملكة جمال فكان الفائز ضابطا، غير ان المثقفين كانوا يتراجعون خائفين أو مترددين أمام بطش يتصاعد تدريجيا . ومنذ البداية فى ٨ سبتمبر ٥٢ أصدر مجلس قيادة الثورة قانون إعادة تنظيم الأحزاب، وقرر أن يجعل من نفسه حكما يراقب اللعبة ويصدر أحكامه، ولا يتدخل ـ هكذا فى البداية ـ فى الانتخابات ولايشترك فيها. وقد تحدد شهر فبراير ٥٣ موعدا لإجراء الانتخابات أى بعد

ستة أشهر من صدور قرار تطهير الأحزاب. ولقد امتثلت أغلب الأحزاب للشروط التى وضعها مجلس قيادة الثورة. أن تتولى تطهير صفوفها من الأعضاء الذين اعتقلتهم الثورة أن تعلن برامجها وأسماء أعضاء الأمانات العامة وامتثل أكبر حزب وهو الوفد للشروط كما امتثل لها أصغر حزب ولعله حزب بنت النيل ورئيسته الدكتورة درية شفيق.وظل حزب الاخوان المسلمين فى مركز الصدارة وفوق التطهير. لكن لم يمض شهر واحد حتى فرضت الرقابة يوم ٢١ أكتوبر ٥٢.

وجاء ١٠ ديسمبر ليواجه المصريون إلغاء الدستور، وبدأ العام الجديد بقرار حل الأحزاب ماعدا الإخوان المسلمين فى ١٧ يناير ١٩٥٣. أما الأحزاب الشيوعية فكانت قد هربت تحت الأرض فى العمل السرى منذ صدور أحكام الإعدام أول الثورة فى إضراب عمال كفر الدوار.

ومع قرار حل الأحزاب هوجمت مقارها. وصودرت ودائعها فى المصارف واستولت السلطة على المطابع واختفت الصحافة الحزبية، واختفى الرأى المعارض واعتقل فى نفس الوقت مائة وأربعة وأربعون عضوا من أعضاء البرلمان السابق على الثورة.

وقررت الثورة أن تفتح لها مؤسستها الصحفية. فاستولت على مطابع شركة الإعلانات الشرقية وشركة الإعلانات المصرية والتى كان يملكها فى الأربعينيات المليونير الانجليزى «فينى» صاحب الشارع المشهور باسمه فى الدقى. وتولى أنور السادات رئاسة مجلس إدارة دار التحرير التى تضم إلى جانب المطابع المصادرة دار تحرير تضم جريدة الجمهورية وصاحب الترخيص بها هو جمال عبد الناصر شخصيا.. وكان المقصود بها أن تملأ الفراغ الفكرى السياسى نتيجة مصادرة صحف الأحزاب بعد إلغائها.

وتتساءل السيدة «مارينا ستاك» صاحبة الدراسة عن الرقابة على الرأى والنشر فى عهدى عبدالناصر والسادات وهى الدراسة التى دفعتنى إلى كتابة هذه المقالات.. تتساءل كيف تستطيع الثورة أن تحقق مبادئها النبيلةبتصفية الأحزاب. وإغلاق الصحف وإقامة محاكم ثورة ومحاكم خاصة باسم محاربة الفساد.

ولقد حاول كتاب وصحفيون مواجهة ضرب الصحافة وتقييد حرية التعبير السياسى بأن دعوا إلى تشكيل جبهة وطنية فكانت نتيجة هذه الدعوة اعتقال الصحفيين من اليمين واليسار واستمرت حملات الاعتقال حتى وصلت إلى المنطقة التى كانت محرمة وهى الإخوان المسلمين فجاء يناير ١٩٥٤ وقوات الشرطة الحربية ورجال الأمن يعتقلون أربعمائة وخمسين من الإخوان. وكان لابد أن يؤدى هذا إلى تيار مضاد للاعتقال وكبت الحريات تجمع واحتشد فى صفوفه وفديون وشيوعيون وبعض رجال القوات المسلحة، والتفوا حول محمد نجيب رئيس الدولة وبدا ان هذه الانتفاضة سوف تنجح فى شهر مارس ١٩٥٤. فقد ألغيت الرقابة على الصحف يوم ٥ مارس واشتعلت الصحف بمقالات الرأى والرأى الآخر. وظهر أساتذة جامعيون من القاهرة والاسكندرية يدافعون عن حرية الرأى والديمقراطية.

واشتدت حملة الحرية فصدر قرار مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس بالإفراج عن جميع المسجونين والمعتقلين السياسيين، والإعلان عن انتخابات عامة فى يونيو القادم مع رفع الحظر السابق على الأحزاب خلال شهر واحد.

أفراح الديمقراطية كانت ترتبط بأمل فى بدء عهد جديد، بعد أن تمت عمليات الهدم وإزالة النظام الملكى القديم، فلم تعد هناك حاجة إلى استخدام السلاح والتعامل بالقوة. أو كما كان يقول ابن

خلدون: إن قيام الدولة يبدأ بالسيف، فإذا قامت الدولة انطلق البناء بالقلم وتراجع السيف، أى تنطلق الأفكار وتزدهر الثقافة. ولا يعود السيف إلى الظهور إلا فى مرحلة الاضمحلال ونهاية الدولة سواء بإنهيار وتفكك داخلى أو غزو خارجى. فبداية الدولة ونهايتها بالسيف، وبين البداية والنهاية يكون التعمير والبناء بالقلم أى بالفكر والثقافة. لكن القلم انكسر فجأة وسط أفراح مارس ١٩٥٤.

وبينما كان المثقفون فى مقاهى القاهرةوالاسكندرية يتبادلون التهانى بعد أن بدأ عام ١٩٥٤ بداية سيئة بإغلاق ثمانى مجلات بينها «الكتاب» لسان حركة السلام و«الملايين» لسان حال الحركة الديمقراطية الوطنية حدتو و«المعارضة» لصاحبها فتحى الرملى.. وإنه لدليل على شذوذ أحوال الثقافة فى مصر أن تقدم اسم فتحى الرملى لقراء اليوم بأنه والد «لينين الرملى» عبقرى المسرح وبغير هذا التقديم لن يعرفه أحد فى جيلنا الحاضر.

وكان أيضا إغلاق مجلتى «الثقافة» و«الرسالة» وفى مقابل ذلك كان العرض المطروح لسد الفراغ الثقافى هو إقامة هيئة التحرير إلى جانب دار التحرير للطباعة والنشر.

لقد كان كل شىء يبشر بأن العهد الجديد قد بدأ، والبداية بالغة السوء فى أول شهرين من عام ١٩٥٤ هى نهاية مرحلة انتهت ولم تعد هناك حاجة إلى استمرارها. لكن حدث فجأة أن عادت الرقابة مع نهاية الشهر يوم ٢٨ مارس. وصدر قرار بتأجيل الانتخابات.

وسيطرت مظاهرات عمال حلوان أو مظاهرات «صاو صاو» على وزن «ماو ماو» القبيلة الافريقية التى اشتهرت بأكل لحوم البشر.

وهوجم أساتذة الجامعات وضربوا طه حسين والدكتور

السنهورى رئيس مجلس الدولة. ضربات لها دلالتها فى اكتساح مراكز التفكير.. وبعد أيام قرر مجلس قيادة الثورة يوم ٥ ابريل تطهير الصحافة والجامعة وبعد عشرة أيام تقرر حل نقابة الصحفيين يوم ١٦ ابريل، ثم كانت تلك المذبحة التى تعرض لها كبار الصحفيين. وكنت أجلس فى مكتب كامل الشناوى بجريدة أخبار اليوم وكان يشرف على الأخبار السياسية والمحلية وأذكر بين الحاضرين صديقنا الحميم سعيد سنبل، عندما صدر بيان مجلس قيادة الثورة فيه اسم كامل الشناوى وإحسان عبدالقدوس وآخرون يتهمهم بالحصول على رشاوى أو مصاريف سرية من حكومات عهد الملكية البائدة! ودق جرس التليفون وكان مصطفى أمين يطلب من كامل أن يصعد إلى مكتبه، وصعدنا معه وهو يترنح دامع العينين لا يفهم ما الذى يحدث وماذا يريدون منه وما هدفهم من التشهير وهل يستطيع أن يرد؟.

أما السيدة روزاليوسف فقد قابلتها فى بيت زوج ابنتها فكانت تهاجم وتشتم وقررت أن تنشر خسائرها من المصادرات التى واجهتها من الحكومات التى عارضتها وكتبت ان كل ماحصلت عليه كان تعويضات طالبت بها على ماتحملته نتيجة مصادرة مجلتها وتقييد حريتها فى إعلان رأيها وما حصلت عليه أقل بكثير من الخسارة المادية أو المعنوية التى تعرضت لها وكانت اتهامات المصاريف السرية تتسع لتشمل ثلاثة وعشرين صحفيا وكاتبا وأربع عشرة مجلة وصحيفة على رأسها طبعا مجلة روزاليوسف المعارضة المشاكسة.

وانشغل المثقفون بضربات متلاحقة.. حل مجلس إدارة نقابة المحامين، أحكام بالسجن عشر سنوات وخمسة عشر عاما على محمود أبوالفتح وأحمد أبوالفتح صاحبى وكاتبى المصرى وسحب

رخصة إصدار «المصرى»، وقد صدر آخر عدد من الصحيفة يوم ٤ مايو ٥٤.

وبعد أيام صدر يوم ٢٦ مايو القرار النهائى بإلغاء أية صحيفة حزبية وهى فى مجموعها ٤٢ صحيفة ومجلة غير صحافة الشيوعيين التى توقفت من قبل. فلما جاء شهر سبتمبر بدأت الحملة ضد الجامعة وطرد أربعمائة وخمسين أستاذا ومدرسا.

أطبقت الكماشة على الصحافة والجامعة تحاصر الفكر والرأى وكانت مذبحة للعقول، وثمنا باهظا تحمله المصريون وقبلوا التضحية به ورفعوا عبدالناصر إلى مرتبة الزعامة الحقيقية. وكان أملهم مرة أخرى أن يبدأ عهد جديد وأن يتراجع السيف ليبنى القلم.



أمن العقول الفارغة



وو الكماشـة على الصحـافـة والصحفيين وعلى الجامعة وأساتـذتها، وخيم مناخ القهر على المثقفين لـلإشتبـاه فى عدم ولائهـم للثورة. وظهـرت بـوادر الجدل حول قضية «الثقـة والكفاءة أو «أهل الثقة» و«أهل الخبرة»، ومـع ذلك ظلت الجماهير تنتظـر انفراج الأزمة.. ؟؟

فعبـد النـاصر الـذى تحدى الغـرب وصـافح «شـواين لاى» فى باندونج، والذى كسر احتكار السـلاح واشتراه من تشيكوسلوفاكيا الشيوعية لابد أن يتجه إلى الجماهير ليكسبها معه فى معركة التنمية ومضاعفـة الدخل.. وظهـرت بالفعل بوادر تخفيف قيـود الرقـابة.. وكان أول من أبلغنى بأن الرقابة سوف ترفع هو «أنور السادات»، وقد استدعـانى إلى مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيـرة بالقرب من «شيراتون الجزيـرة» الآن.. وقال لى: إن الإعداد لـدستور جديـد قد تم، وكنت أكتب فى بـاب «أدب وقلـة أدب» بـ«آخر سـاعـة» عن «الحرية» وإلى أى حد تقف عنده.. «وكتبـت أن شيئا واحدا لابد أن نتركه حرا إلى أقصى حد وهو الأدب والفـن، وكان الدستور الجديد لم يتعرض لهما»، ولكننى أنظـر إلى المستقبل الذى يجب أن تتضح لنـا فيـه حقيقة الأديـب أو الفنان فى المجتمع، إنـه الكشـاف الـذى يستطيع للطـريق أمـام مـوكب الحيـاة، وهـو الـذى يسبق الـزمن بخيـاله، ويعـرض تقريـرا مفصـلا فى شكل أعماله الفنيـة عن كل مايمكن أن نصل إليه من تطور.. ورجل السياسة يتلمس من الأدب

والفن المبادئ الأساسية التى يتجه إليها المجتمع الذين يعيش فيه.. وهذه حقيقة ليست مقصورة على السياسة، بل العلماء فى اكتشافاتهم واختراعاتهم يهتدون بخيال من سبقهم من الفنانين والأدباء.

لقد حلم الفنان بالطائرة، وبالقمقم الذى ينفجر فتخرج منه قوة مدمرة، وهو الذى وصف فى ألف ليلة مرآة الساحرة التى تحولت إلى تليفزيون والكرة البللورية التى تحولت إلى تليفون.. ومن أجل هذا استحق الفنانون والأدباء حريتهم كاملة.

حاولت فى تلك الأيام بين ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ أن أخرج الأدب والفن والحركة الثقافية عموما من الحصار الذى فرضته كماشة الأمن، وذلك الاتجاه الذى بدأ منذ بداية الثورة، لوضع الصحافة ثم الأدب والعلم تحت سيطرة الأمن، أو تعبير آخر أن تكون استراتيجية الثقافة جزءا من استراتيجية الأمن.. وبذلك يكون محرما على المثقفين المغامرة والاندفاع فى الخيال أو الوقوع فى الخطأ، وأن يظلوا باستمرار تحت إشراف الرقيب..

وكان لابد من الكتابة فى مناخ تتراجع فيه ولو نسبيا سيطرة الرقابة بعد أن أعلن عن بدء تنفيذ الدستور الجديد فى ١٩ يونيو ١٩٥٦، بل أعلن عن انتهاء قانون الطوارئ.. وكان الدستور يضمن بنصوصه حرية الصحافة والنشر فى حدود القانون «مادة ٤٥».. وظهر فى نفس الوقت قانون جديد للصحافة يحدد ما يخضع للرقابة على سبيل الاستثناء من القاعدة التى هى حرية النشر، وشملت الاستثناءات الدفاع الوطنى، وقداسة الحياة الخاصة، وعدم المساس بالقضايا الجنائية التى ينتظرها القضاء وقضايا هتك العرض والاغتصاب وقضايا الأحوال الشخصية كالطلاق. وأن يلتزم الصحفيون بأخلاق المهنة وميثاق شرف تتولى نقابة الصحفيين إعلانه.

وقد سرى حماس بين الفنانين فى انتظار فجر الحرية، وتشجعوا على معارضة الرقابة وأرسلوا خطابات إلى الصحف تشكو من تعسف الرقيب، وأذكر من بين هذه الخطابات.. رسالة وصلتنى من جمال فارس.. وكان مذيعا فى الإذاعة الأوربية، وممثلا ودخل ميدان الإنتاج السينمائى، وهو ابن الممثل الكبير عباس فارس، وأترك للقارىء قراءة نص الخطاب، فهو أبلغ فى التعبير عن معاناة الفنان من الرقابة، جاء فى الخطاب:

«منذ ثلاث سنوات ـــ ١٩٥٣ ـ أنتجت فيلم «السماء لا تنام» وموضوعه يدور حول فكرة أن الشر هو جزاء الشر، وان الخير هو جزاء الخير، وقد أرسلت السيناريو إلى الرقابة، فوافقت عليه بعد إدخال بعض تعديلات طفيفة قمت بتنفيذها جميعا أثناء التصوير، ثم أرسلت الفيلم إلى الرقابة بعد انتهاء تصويره فوافقت عليه وعرض الفيلم فى القاهرة، وفى أغلب دور العرض فى أنحاء القطر المصرى، كما أرسلته إلى السودان وشمال افريقيا وسوريا ولبنان، وفجأة منذ عام واحد أخطرتنى الرقابة بأنها منعت تصدير الفيلم إلى الخارج ولا أدرى سببا لهذا الإجراء الغريب بعد مرور سنتين على عرض الفيلم، وحتى اليوم مازال المنع قائما.

ولكن العجيب حقا ان صوت العرب أذاع نفس الفيلم المحظور تصديره إلى الخارج فى إذاعته يوم ٨ أكتوبر عام ١٩٥٥، أى فى الشهر الماضى ولاشك ان صوت العرب لا يذيع فيلما ضارا بسمعة البلاد، إنى تكبدت خسارة كبيرة فى هذا الفيلم، فهل تظن أن منتجا صغيرا مثلى يستطيع إنفاق ماله وهذا هو تصرف الرقابةمعه. إنى أول من يؤمنون بفائدة الرقابة على الأفلام وضرورتها، إنها شىء غير مرغوب فيه، ولكنه ضرورى، ولا نستطيع إلغاءه تماما، وإلا استغل بعض المغامرين الفرصة

ليصوروا أفلاما مبتـذلة تخدش الآداب والنظام العام، ولكنى أقترح تنفيذ النظام المتبع فى أمـريكا وبريطانيا وفـرنسا، وكثير من البلاد الأخرى، فتكون الرقابة من هيئـة مكونة من رجال صناعة السينما أنفسهم، فلجنـة الرقابـة تشمل مخرجين وكتابـا وممثلين تنتخبهم النقـابة ليشرفـوا على نظـافة أفـلامنـا.. وخلوهـا من العيـوب التى تخدشهـا، وعندئذ فقط نستطيع أن ننتج القصـة الجيدة والأفـلام الجيـدة.. أريـد أن أعـرف من المخطىء، صـوت العـرب أو رقـابـة الأفلام، من يجيب على هذا السؤال؟

جمال فارس..

وقد نشرت الخطاب، وكتبت انى ضحكـت حتى شعرت بالمغص ألما، وانتظرت مع جمال فـارس تباشير الحرية الجديدة، وتأكـد لنا ان الحريـة قادمـة لا ريب فيهـا قبل بدء تنفيـذ الـدستور الجديـد بأسبـوع واحد، عنـدما أصـدر جمال عبـدالناصر يـوم ١١ يونيـو قراره التـاريخى بحذف الفقرة التى تعفى رئيس الدولـة من النقد فى الصحـافة والكتب.. وأجمعت مـانشتات الصحف على أن القـرار التاريخى يبدأ عهدا جديـدا من الحرية بلا رقابة تتعسف أو تتحكم أو تفكـر فى الأمن على حسـاب الفكـر، وتفـرض الاستقـرار بإلغـاء نشـاط العقل..

لكن القرار التـاريخى الذى يبيح نقـد رئيس الدولـة، انتهى يوم ٢٢ يوليو ـ عمليا ـ بقرار لوزارة الإرشـاد القومى برفض الترخيص لستين صحيفـة ومجلـة! وأدرك الأدبـاء والفنـانـون ومعهم جمال فارس، ان انتظار ساعة الفرج سـوف يطول، وهاجر جمال فارس إلى انجلترا حيث عـاش هناك، ولأن مصر لا تحتـاج إليه كمـذيع أو ممثل أو منتج ينفق أمواله فى الانتاج السينمائى، فكل هذا لايساوى شيئا فى نظر موظف يراجع تقريـرا ما للأمن ومسئولا يصدر قراره

ليطمئن على الأمن بأسلوب إغلاق جميع الأبواب التى قد تثير المشاكل، خاصة تلك المشاكل الفكرية والثقافية التى لايفهمها أو لايستطيع أن يستوعب أبعادها بوضوح، من يتخذ القرار الأمنى.

وجاء أكتوبر ١٩٥٦ ومعه العدوان الثلاثى، وعادت الرقابة كاملة، فلما انكسر العدوان وتوج عبدالناصر بطلا عالميا انتصر على انطونى ايدن رئيس وزراء بريطانيا التى لم تعد عظمى وجى موليه رئيس وزراء فرنسا الحاقدة على تأميم قناة السويس التى تعتبرها فرنسية، وبن جوريون الذى يحلم بإسرائيل الكبرى.

كان المتوقع أن تعود البلاد إلى مسيرة الحرية، لكن الرقابة استمرت وتوسعت حتى شملت فى يونيو ١٩٥٧ مجلة «بنت النيل» وصاحبتها د. درية شفيق التى تطالب بحقوق المرأة السياسية تصدر قرارا بإغلاقها. وأغلقت بعدها مجلة «السيدات المسلمات» عام ١٩٥٨. وفى مقابل ذلك تم جمع كتاب اليسار فى المنفى فى صحيفة المساء تحت رئاسة خالد محيى الدين، وصدر العدد الأول منها فى ٦ أكتوبر ١٩٥٦، وكانت قد سبقتها جريدة أخرى فى يونيو ١٩٥٦ هى «الشعب» أشرف عليها صلاح سالم، وكلاهما ـ المساء والشعب ـ سوف تواجهان مصيرا محتما، فقد إضطرت «الشعب» إلى الإغلاق بالاندماج فى صحيفة «الجمهورية» فى سبتمبر ١٩٥٩، أما صحيفة «المساء» فقد واجهت فى ابريل ١٩٥٩ حملة اعتقالات وتطهير لكتابها ومحرريها اليساريين فانتقلوا من المنفى فى جريدة مسائية إلى السجن؟!

وكنت أحاول فى تلك الفترة ـ السنوات الأولى ـ من الثورة، أن أعرف عقلية الرقيب بفضول الروائى، وكنت أرى ان الفهم الإنسانى أهم من الفهم السياسى، وكانت بينى وبين أديبنا الكبير الراحل يحيى حقى مناقشات فى هذا الموضوع لأنه قضى فترة

يعمل مديرا لمصلحة الفنون، وكان يدعونى لحضور مراقبة بعض الأفلام الأجنبية، وكان رأيه الذى يردده بإصرار انه يؤمن بالحرية، وأى تقدم وتطور فى مجتمعنا لن يتحقق إلا فى ظل حرية التعبير، وكان يريد أن تكون الرقابة على الأفلام التى يشاهدها الكبار مقصورة على المناظر المخلة بالآداب العامة والتى تخدش الحياة.. وكان يشكو لى من الرقباء الذين يشرفون على الرقابة، ثم يقول بصراحة وبمشاعر إنسانية «انهم خائفون»، ومن الممكن أن يكون تعريف الرقيب هو «الرجل الخائف»!! وناقشت رقباء واعترف لى أحدهم قائلا:

— نحن فى بلد يعيش فى مفترق طرق، وفى مفترق الزمن أيضا، وقد أرى مشهدا فى أحد الأفلام ليس فيه مايخل بالآداب العامة، ولكن الشيخ «فلان» فى معهد أسيوط الدينى قد يرى فى نفس هذا المشهد فجورا دائما ودنسا، وقد يستشيط الشيخ غضبا فيرسل برقية إلى الوزير يشكو فيها من عرض هذا المشهد.. وتكون ضجة، ويسأل الوزير — الذى لم يشاهد الفيلم - وكيل وزارته، فيرى وكيل الوزارة أنه من الأسلم والأضمن أن يقول: إن الفيلم لايصلح للعرض، وفجأة يجد الرقيب نفسه قد ارتكب خطأ هو المسئول عنه، بل هو رجل مستهتر يبيح عرض مشاهد فاجرة آثمة على الناس، لذلك وكى يضمن الرقيب راحة البال تراه يحذف كل مشهد يتصور أو يتخيل أن هناك شخصا ما فى مصر سيعترض عليه.. فهو يحذف ماقد يثير أصحاب عمائم، أو مهندسين أو أطباء، أو محامين، أو مدرسين، أو ممرضات، أو أى مخلوق قد يرفع صوته فى هذا البلد!!

وهكذا امتدت سياسة الأمن، إلى سياسة راحة البال، على حساب الثقافة أوالتفكير أو النشاط الأدبى والفنى، ولم يتنبه أحد أن هذه

السياسة الأمنيـة، لابد أن تنتهى إلى دعم القوى التى تهاجم الأمن، لأنها لا تأخذ موقفا تدافع عنـه، بل تكتفى بإغلاق الأبواب التى قد تهب منها الـرياح.. فإذا كان الدستـور أو القانون يحميان حـرية الرأى وهـى حق الطلبة والطـالبات والأساتـذة فى الحرم الجامعى، فقد وصل بنـا الأمر إل أن حرس الجامعـة يتقدم إلى الطـالب الذى يتحـدث مع طـالبـة.. ويطلب منهما الابتعـاد عن بعضهما وقطع الحوار الـذى يـدور أمـام الجميع فى حـرم الجامعـة.. لماذا؟ لأن الحرس لايريـد أن يثير مشاكل مع إرهاب يهدد الطلبة والطـالبات، لايفكر فى حماية حق الطلبة فى الحوار والكلام، بل يفكر فى المشاكل التى قد تنجم عن ممارسة الطلبة أو الأساتذة لحقوقهم البسيطة فى الكلام، والمسئولون فى كل مكان لايـريدون إثـارة مشاكل، بمعنى أنهم لايريدون التورط فى الدفاع عـن سياسة ثقافية لأن المطلوب فى الحقيقة، هو الأمن والهدوء وعدم ارتفاع صوت، وإخماد أى مشكلة قبل أن تظهر.

ولنتيجة إخماد كل حياة فكرية أو اجتماعيـة وتفريغها فى خدمة أصـوات تفرض وجـودهـا فى الفراغ بـالتهـديد والإرهـاب.. تحول الرقيب الخائف إلى مسئـول خائف، محـافظ خائف.. رئيس جـامعة خائف.. وزير خائف.. لاأحد يدافع عن شىء له قيمته.. لأن الشىء الـوحيد الـذى يخاف من فقدانـه هـو الإخلال بـالأمن، وبالغـوا فى الحرص، حتى انفجرت مشكلة الأمن فى فراغ ثقاف وسياسى.

ومن حقى أن أقول إنى نبهـت إلى هذا الخطر منـذ عام ١٩٥٥. وكتبت بالحرف الـواحد فى باب «أدب وقلـة أدب» بـ «آخر سـاعة» إننا لن نتقـدم ولن نتطور حتى نفضح أنفسنـا ومجتمعنا ونـواجه كل مافيـه من مشاكل بصراحـة، هذا هـو الطريق الـذى اتخذناه.. عنـدما أعلنـا أمام الـدنيـا كلها أنـه كـان بيننا مـرتشون وأذنـاب

استعمار وخونة، وأقمنا لجان تطهير ومحاكم للخـونة.. وطالبت أن تكـون منابـر الصحف والمسرح والسينما والكتب بغير وصايـة من الرقـابة حتى نعرف حقيقة أمـراضنا، لأن معرفـة الحقيقة هى أول درجات الشفاء.

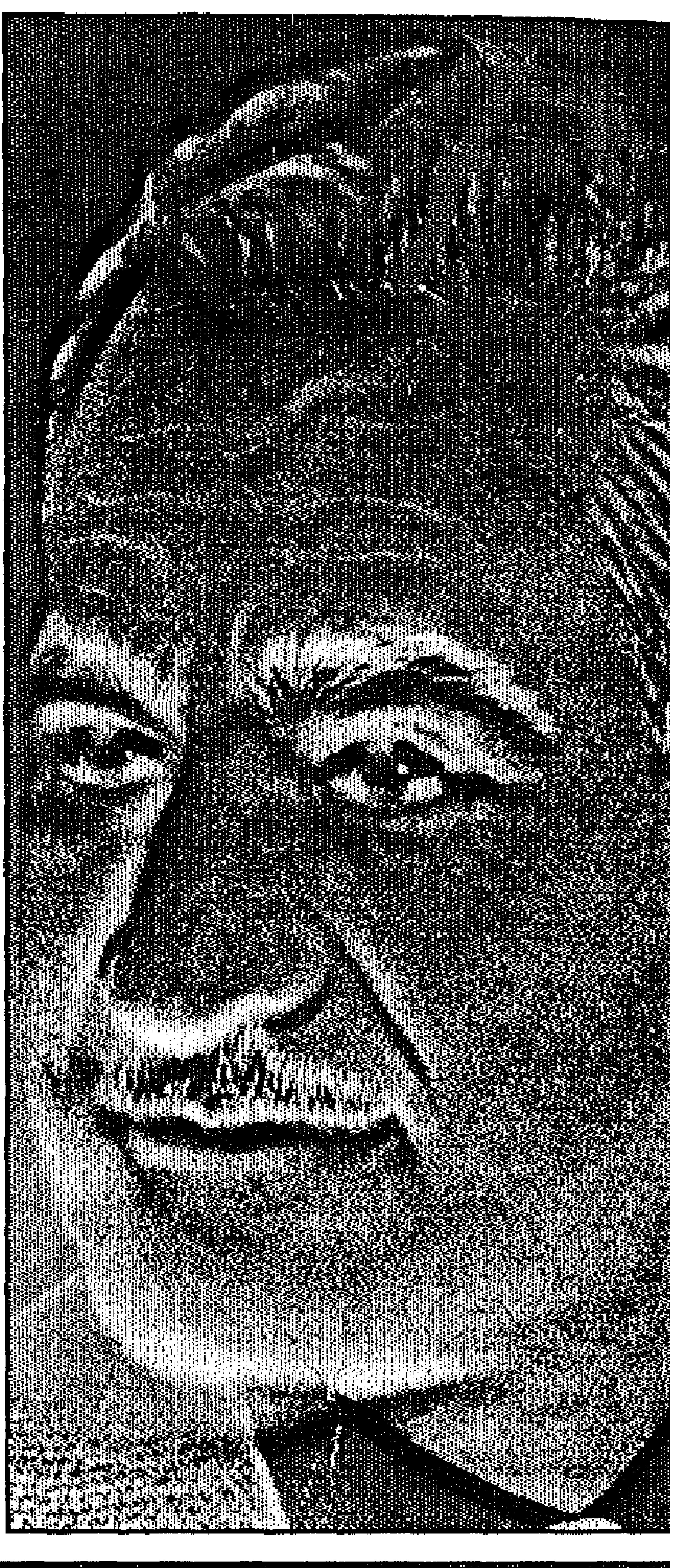
كان رأيى أن الثـورة عندما قامت فضحت قطـاعا من المصريين بـاسم الخيانـة والاقطاع، ولم يقـل أحد أن هـذه الفضيحة تـؤذى مصر، بل كـانت لصالحهـا ولمعالجة الفساد وتطهير نظـام الحكم، فلماذا نعـود ونغلق أبواب الصراحـة ونفرض الـرقابـة ونخشـى أن تكون للثقافة ولحرية الكلمة القيادة.

هل كنا نخشـى على أمن مصر، أم أمن حكـام وقيادات، لكن هذا السـؤال كان غير واضـح تمامـا فى تلك الفترة التى كانت تمر فيهـا مصر والأمـة العربيـة بمـرحلة غليـان، وتتجـه مصر تحت زعامـة عبدالنـاصر إلى الوحـدة مع سـوريا.. وكـان الصبر والاحتمال ثمنا يـدفعه المصريـون مقابل جـائزة كبرى هى الوحـدة يقدمهـا زعيم وبطل حقيقى هو جمال عبدالناصر.

والأحلام مـازالت بلا حـدود.. ومازلنا لانعـرف على وجه الـدقة معنى أغنية أم كلثوم للصبـر حدود.



عبدالناصر وما يجرى فى بيوت الصحفيين



❞ توقعت أن تكون الوحدة مع سوريا سببا لفتح الأبواب لحرية الرأى والتعبير.. فإذا كانت الرقابة قد استمرت بعد الانتصار على العدوان الثلاثي.. فلا مبرر لاستمرارها تحاصر حرية الفكر بعد تحقيق الوحدة مع سوريا.. ولقد كان جلاء القوات البريطانية عن مصر بمثابة جلاء عن عقولنا قبل أن يكون جلاء عن أراضينا ❝

وهاهى ذى الوحدة مع سوريا تفتح الأبواب على مصراعيها لحوار بين الشعار الذى رفعته ثورة يوليو «حرية اشتراكية وحدة»، والشعار الذى يرفعه البعث القومى «وحدة حرية اشتراكية» ولقد أراد عبدالناصر أن يواجه البعث وسعيه للهيمنة على العالم العربى بأن يقدم الحرية على الوحدة ولكنه لم يطمئن تماما لفتح الباب للحرية وهو يواجه عدوانا خارجيا كشف عن رغبة بعض قيادات الاقطاع والمثقفين فى الاحتماء بإنجلترا أو فرنسا ضد ما يعتبرونه مظالم وأخطاء الثورة والضرر الذى لحق بمصالحهم منذ سقوط النظام الملكى.

وكانت إنجلترا وفرنسا تعلنان صراحة عن تعاملهما مع مصر بمبدأ القوة وقال «بيرسون ديكسون» مندوب إنجلترا فى الأمم المتحدة يبرر الاعتداء البريطانى الفرنسى المسلح على مصر :«إن القوة يجب أن تستعمل فى الشرق الأوسط.. لأن عقلية العرب فى تلك المنطقة لاتفهم إلا لغة القوة، ولا فائدة من إخضاع الشرق

الأوسط للنظام والقانون إلا بهذه الوسيلة!! وكان البعث يرى أن وحدة العرب والقومية العربية هى الوسيلة لمواجهة استعمار الغرب.. أما عبدالناصر فأراد أن يبدأ بالحرية ولكنه تردد فى الاعتماد عليها، واكتفى بثقة الجماهير بزعامته دون أن يطلقها تتفاعل بالحرية أو يسمح بالحوار المفتوح حول اختيار بوابة الديموقراطية كمدخل لبناء القومية العربية، أو دخول «بوابة القومية» لتحقيق الحرية واستقلال الإرادة العربية.

ولكى يتخلص عبدالناصر من هذا الجدل «المأزق» بين الحرية والوحدة.. اختار الكلمة الثالثة فى الشعار وهى «الاشتراكية» باعتبار أنها لمصلحة الجماهير التى تؤيده وبايعته زعيما.. وكان من الصعب أن يجد بين الصحفيين الكبار من يؤيده فى طريق الاشتراكية فهى غريبة عن عالمهم الذى ارتبط بالكفاح من أجل الاستقلال والدستور الذى يكفل الحريات للمصريين.

وكان من المستحيل أن تتصور مصطفى أمين وعلى أمين، أو فكرى أباظة، أو محمد حسنين هيكل أو حتى إحسان عبدالقدوس دعاة للاشتراكية فالجميع لهم أحلام ليبرالية. وهنا بدأ يبرز دور الكاتب السياسى الشاب أحمد بهاء الدين والذى اختار على الفور الاشتراكية.. وله مقال هام نشره فى ٥ يونيو ١٩٥٨ فى مجلة صباح الخير التى يرأس تحريرها تحت عنوان «حكاية الإيديولوجية العربية» يضع فيه خطوطا فاصلة بين الاتجاه إلى القومية أو الاتجاه إلى الليبرالية ويختار طريق الاشتراكية.

وفى هذا المقال كتب أحمد بهاء الدين « إن عبارة ـــ إيديولوجية عربية ـ فى حد ذاتها تحمل كثيرا من أساليب اللبس والاضطراب، فنحن حين نقول «إيديولوجية.. نقصد فى الواقع «عقيدة اجتماعية» فى حين أن «العربية» صفة قومية لااجتماعية بمعنى أنه هناك

إيديـولوجيـة اشتراكية و«إيديـولوجيـة شيوعية».. و«إيـديولـوجية رأسمالية» فى حين ليس هناك شىء اسمه «إيديولوجية إنجليزية أو ألمانية أو فرنسية».

وهكـذا كان بهاء يعلن بـوضـوح أنه يقف فى نفس الخنـدق مع عبدالناصر فى اختياره الاستراتيجى.

وقـال بهاء : إن عبـارة «إيـديولـوجيـة عـربيـة قـد كشفت عن اتجاهين خـاطئين وخطيرين.. وإن كانـا على طـرف نقيض.. الاتجاه الأول يظن أصـحابـه أن وصف العقيدة بأنها عـربية يعطيهم الحق فى أن يخترعـوا أى شىء.. وهـذا بالطبـع هراء.. كمحـاولـة اختراع سيـارة دون الأخـذ بالقـواعـد العلميـة الخاصة بـالسيـارة والتى تجعلها تسير.

أما الاتجاه الثانى فيرى الأيديولـوجية العربية اشتراكية.. وكأنها جسم صلب لاصلة له بـالبشر.. يمكن أن نخرط منها بنفس المقص آلاف ومـلايين القطع المتشـابهة.. وبعـد أن تسـاءل بهاء.. أين الصواب؟ قـال هو أن تكـون إيديولـوجيتنا اشتراكيـة فى جوهـرها تتفق مع الاشتراكية العلمية.. كما تكـون عربية بمعنى أنها تستلهم فى خطـواتها ظـروف الشعب العـربى السيـاسيـة والاجتماعيـة والنفسية والاقتصادية.

ومع بهاء بدأ ظهـور كتاب الثـورة يريدون التفكير والمنـاقشة.. وشجع إحسان عبدالقدوس حريـة المناقشة فظهرت فى نفس الوقت كتابـات أخرى فى روزاليوسف وصبـاح الخير تطالب بـالاشتراكية كـان من أبـرزها مـاكتبـه كـامل زهيرى.. وكان يصر على حـريـة المناقشـة ويستخدم تعبيراتـه الخاصة مثل «عـزل الجماهير ومنع تجول الحرية» ليـؤكد أن «الاشتراكيين» عادة لايخلبهم مـايقام من لافتات.. الاشتراكيـون لهم حاسـة الحذر التى تجعلهم يتسـاءلون

دائما : أين الحقيقة داخل الهياكل الشكلية.. فأنورين بيفان عامل المنجم الذى أصبح وزيرا اشتراكيا، قال: إن البرلمان بدأ فى إنجلترا فى عام ١٥١٧م ولكن الديموقراطية الحقيقية بدأت فى عام ١٩٣٠ حين تساوت المرأة بالرجل.. والعبرة فى رأيى - رأى كامل زهيرى - متى ينتهى عزل الجماهير عن الاشتراك فى الحكم أو متى تشترك فعلا بتمثيل حقيقى غير مزيف فى المسئولية والسلطة.

ولاشك أنى دخلت معهما فى الدعوة إلى الاشتراكية، ولكنى لم أحددها بقواعد علمية وقيدت تصورى لها بأنها لاتشكل قيدا على حرية الأديب والفنان.

كما اكتفيت بالأفكار السياسية دون أن تدخل المعترك السياسى كما فعل بهاء عندما قطع برأى بين الاشتراكية والبعث، وجاءت هذه الدعاوى للاشتراكية، أقرب إلى الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية منها إلى الشيوعية مما جعل الشيوعيين المصريين يرفضونها والبعثين القوميين يهاجمونها.

وفى تلك الفترة بدأ عبدالناصر فى التفكير لتغيير قيادات الصحافة بقيادات جديدة مثل أحمد بهاء الدين وكامل زهيرى ومثلى.. ولم يحدث اتصال مباشر بى، بل كنت — كما عرفت فيما بعد - موضوعا تحت المراقبة بمعناها السياسى وحدث ذات يوم أن دخلت أخبار اليوم وقابلنى مصطفى أمين باسما وقال لى:

— أنت بالأمس كنت ساهرا فى بيت محمد التابعى، وأضاف وهو ينظر فى عينى يرقب وقع كلماته.

— وحدث كذا وكذا.. وأنت قلت كذا وكذا.. وكان مايقوله صحيحا.. فقلت له على الفور:

— هل يحكى لك الأستاذ التابعى كل هذه التفاصيل عما يحدث فى بيته؟

فإذا به يضيف قائلا:

— أبدأ .. التابعى لم يتصل بى.

فسألته فى دهشة:

— وكيف عرفت إذن ؟

قال ببطء وهو يراقب علامات الدهشة ترتسم عن وجهى:

— الذى قال هذه التفاصيل عبدالناصر!

وكنت أعلم أن الأستاذ التابعى يتصل يوميا بالرئيس عبدالناصر، وكذلك مصطفى أمين. ولكن لم أتصور أن عبدالناصر حريصا على سماع كل كبيرة وصغيرة وأنه يخرج من وحدته بأن يتابع مايحدث فى بيوت الناس ويستمع إلى مايدورمن حديث عادى ونكات.. وفى نفس الوقت يعرف مايريد من معلومات، وفى مثل هذا الجو كان الجميع تحت رقابته المباشرة إلى جوار رقابته غير المباشرة عن طريق تقارير الأجهزة!

وحدث فى عام١٩٥٩ أن اتصل بى على صبرى وكنت عائدا من فرنسا مع وفد من الصحفيين المصريين.. وكان هذا هو أول اتصال لى به، فسألنى عن انطباعى عن الزيارة، وإذا كنت قد حضرت مأدبة غداء دعت إليها وزارة الخارجية الفرنسية، فأبديت له أسفى لأنى اعتذرت عن عدم حضور المأدبة وفضلت زيارة متحف اللوفر! فأبدى دهشته.. وقال: إن العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع فرنسا منذ العدوان الثلاثى، وهذه الدعوة من الجانب الفرنسى تحمل رسائل غير مباشرة بين السلطات فى فرنسا ومصر، وقال إنه سمع ماقاله الصحفيون الذين حضروا المأدبة وكان يريد أن يسمع رأيى..

وفجأة قال لى إن البلد — مصر - سوف يحدث فيها تغيير كبير.. محوره أن أكبر دخل فى مصر لايجب أن يزيد على ثلاثة آلاف جنيه

فى العام بمعدل مائتين وخمسين جنيها فى الشهر.. وقال: إن هذا المبلغ يكفى لحياة مريحة ومستوى معيشة مرتفع ولا داعى لأكثر من هذا.. ثم أضاف إنه لابد أن يكون هناك سيطرة للدولة على المواصلات والدواء.. وكانت المواصلات فى القاهرة فى ذلك الوقت امتيازا يملكه المليونير أبو رجيلة رئيس نادى الزمالك وكان الدواء مملوكا لشركات أجنبية بعضها يملكها المليونير أحمد عبود.. وقال لى على صبرى: إنه لايريد منى إذاعة ماسمعته فهذه أسرار، ولكنه قرأ ما اكتبه ويرى أنى أستطيع أن أشرح الاتجاهات السياسية المقبلة للقراء.

وكان أول ما فعلته هو أنى تحدثت مع إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير روزاليوسف ـ وصاحبها ـ فيما سمعته، فأبدى دهشته، وقال غير مصدق: إن هذا أمر خطير.. ونصحنى بتكتم الأمر.

كان غير واضح لى أو لأى أحد أن هناك اختيارا للاشتراكية ـ دون تحديد واضح لمعالمها ـ قد تبناه عبدالناصر، وكان يعد للخطوات التالية، وقد قرر السيطرة الكاملة على الصحافة، وكانت قد انحصرت بعد إلغاء الصحافة الحزبية وإلغاء عشرات الرخص لصحف ومجلات سياسية ونسائية وثقافية.

انحصرت فى دار أخبار اليوم وصاحبيها مصطفى وعلى أمين ودار الهلال لصاحبيها أميل وشكرى زيدان ومعهما شريكهما ورئيس تحرير المصور فكرى أباظة.. والأهرام وصاحبه عائلة جبرائيل تكلا وروزاليوسف وصاحبها ورئيس تحريرها إحسان عبدالقدوس.. وهذه الدور الصحفية الأربع ليست حزبية ولاشك أن لها تأثيرها فى الشارع المصرى بدرجات متفاوتة وأساليب واتجاهات مختلفة.

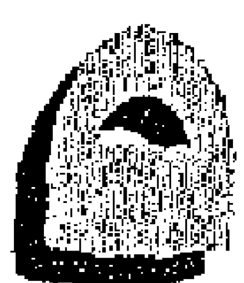
وكانت نظرات عبدالناصر تراقبها وتحاصرها بأساليبه المباشرة وغير المباشرة.. ورأى أنه لن تفيده فى اختياره الاستراتيجى للاشتراكية، التى أراد أن يرتبط بها من أجل الجماهير فى مصر - الإقليم الجنوبى - وسوريا الإقليم الشمالى للجمهورية العربية المتحدة.. متحديا حزب البعث مؤجلا مرة أخرى اختيار الحرية.. وفى نفس الوقت مصادرا على الحركات الشيوعية التى تعمل تحت الأرض وتهاجمه وتتهمه بالطموح الشخصى كنابليون بونابرت.

وجاء صباح يوم ٢٤ مايو ١٩٦٠ ، وكنت قد استيقظت مبكرا على غير عادتى، وخطر لى أن اذهب إلى نادى الجزيرة.. وهناك طلبت إفطارا فى الليدو وكانت الساعة السابعة والنصف صباحا ولا أحد حولى، وبينما أتناول الإفطار جاء الجرسون يقول لى: إنى مطلوب على التليفون.

وكان أمرا غريبا أن يعرف أحد بوجودى فى النادى فى هذا الوقت المبكر على غير عادتى.. وأنا شخصيا كنت لا أعرف أنى سأحضر إلى النادى وأتناول إفطارى.. فقد كان الأمر كله مجرد استجابة لاندفاع تلقائى عفو الخاطر واللحظة.. فمن هو الساحر الذى رأى فى كرته البللورية أنى تحركت إلى هذا المكان؟

وسمعت صوت منير حافظ مساعد سامى شرف يتحدث ضاحكا:

— نحن نستطيع الوصول إليك وإلى من نريد الاتصال به فى الحال.. تعالى فورا إلى هليوبوليس لاجتماع هام.. لابد أن تحضر قبل التاسعة!



تاهت الحرية بين اليسار واليمين والإخوان

99 أسرعت صباح ذلك اليوم ٢٤ مايو ١٩٦٠ إلى الاجتماع المفاجىء الذى دعيت إليه بمقر رئاسة الوزارة بهليوبوليس.. ودخلت قاعة يجلس فيها كبار الصحفيين مصطفى وعلى أمين وفكرى أباظة وسيد أبو النجا.. الجميع ماعدا إحسان عبدالقدوس الذى كان مسافرا فى أوروبا.. جلست فى مقعد وكأننى فى سرادق عزاء وهمسات بين الحاضرين تنقل إلى بملامح الوجه ولهجة السؤال الهامس مانراه على وجوه المعزين ونسمعه فى لهجتهم وهم يتساءلون عن الأسباب التى أدت إلى وفاة الفقيد.. 66

واستدعينا إلى قاعة أخرى وجاء على صبرى وقرأ نص القانون ١٩٥٦ بتنظيم الصحافة.. انتهت الملكية الخاصة لدور الصحف الأربع ـ الأخبار والأهرام والهلال وروزاليوسف ـ وتقرر أن يكون أصحاب الصحف بين رؤساء أو أعضاء مجالس إدراتها، أما الملكية فللشعب وللمحررين وعمال المطابع والإداريين ولهم نصيب فى الأرباح وجاء فى ديباجة القانون الكلام عن سيطرة رأس المال الخاص على الصحف، لذلك انتقلت الملكية إلى الشعب الذى يمثله الاتحاد القومى.

غادرت الاجتماع إلى روزاليوسف، كان قد تم الاستيلاء على المبنى والمطابع وسعد عفرة من الضباط الأحرار يجلس على مقعد

إحسان عبدالقدوس ومعه يوسف السباعى عضوا منتدبا، وكان من حسن حظ المؤسسة الاحتفاظ بمديرها العام كمال عزب عضوا فى مجلس الإدارة، وكان قد شرع فى بناء دار جديدة للمؤسسة تنتقل إليها بشارع قصر العينى.. وقد تولى البناء الدكتور سيد كريم الذى صمم بناء أخبار اليوم.. وكان إحسان قد اقترض هو وعائلته حوالى مائة ألف جنيه من البنك فى عملية البناء الذى انتقلت ملكيته إلى الاتحاد القومى بينما ظل الدين باسمه واسم عائلته، فأصبح فى موقف لايحسد عليه.. استدان من البنك ليبنى دارا صحفية يقدمها للدولة!

وكانت حالات مشابهة بصورة أو بأخرى فى الدور الصحفية الأخرى وشاع أن الدولة مفلسة تستولى على دور الصحف.. بينما انتبه كثيرون إلى أن الثورة تتجه إلى اشتراكية مركزية، وتنظيم الصحافة أو تأميمها.. هو مقدمة لتأميمات أخرى شاملة وهو ماحدث بالفعل فى يوليو ١٩٦١ بالقوانين الاشتراكية.. المجيدة.

ودعا جمال عبدالناصر إلى اجتماع حضره أعضاء مجالس الإدارات الجديدة، وكان إحسان عبدالقدوس قد عاد مسرعا من الخارج ليعلن تأييده لما حدث .. وفى نفس الوقت اشتد قلقه على ديون ثقيلة تورط فيها.

وفى الاجتماع واجه عبدالنصر مباشرة شائعة إفلاس الدولة.. وأنها صادرت مبانى ودورا صحفية لأنها فى حاجة إليها، وقال موجها كلامه لأصحاب الصحف : إن الدولة ليست فى حاجة إلى الأحد عشر طابقا التى ارتفعت فى أخبار اليوم. وكان واضحا أنه يرد على ماقرأه فى التقارير.

فقال بتأكيد غير عادى أن النظام قوى وثابت الأركان ولاتوجد قوة تستطيع أن تهزه، وكان غير مستعد للمناقشة فقد خصص

الاجتماع لهدف أساسى وهو إثبات قـوة النظام واستعداده للبطش بأى احتجاج من جانب الذين فقـدوا ملكية دورهم، وكان فيما يبدو تجربة لما سوف يأتى فى المستقبل.

وفى نفس الـوقت وضـع عبـدالنـاصر مبـادىء رقابيـة بمفهـوم سياسى اشتراكى يتفق مع مـاسبق أن سمعته من على صبرى منذ شهـور عن ضرورة تحديـد الـدخل، وحـاول سيـد أبـو النجـا أن يتحدث عن قـواعد الإدارة فلم يسمح لـه بمواصلة الكـلام، وحاول إحســان عبدالقـدوس أن يتحدث عن فن الصحـافة حتى لاتتحـول الصحف بعـد القـانـون الجديـد إلى نشرات غير مقـروءة.. فغضب عبـدالناصر وقـال بحـدة: إنه لايقبل أن تبـاع الصحف بـالدعـارة، وهـاجم صباح الخير وكنـت رئيسا لتحـريـرها لأنها تنشر رســوم الكـاريكاتير للـرسام حجـازى والمرأة فى رسوم حجـازى لها نسب مثيرة فى أردافها ـ الرسوم كاريكاتـورية! ـ وهاجم النكت والرسوم التى يظهر فيها الزوج مخدوعا والزوجة تخبىء رجلا فى الدولاب.

وقال بلهجـة حاسمة لاتخلو من تهديـد: إن مصر ليست النساء المطلقات فى نادى الجزيرة.. مصرهى كفر البطيخ.

ولقد أحدث هذا الاجتماع هـزة عنيفة، جعلت الصحف تردد كل يوم اسم كفـر البطيخ وتملأ صفحاتها بتحقيقـات عن كفر البطيخ، وقد كتب الأستاذ سعدالدين وهبة مسرحية باسم كفر البطيخ وهى بمقاييس الفن مسرحية ناجحة، ولكنها ساهمت فى إطلاق الكثير من النكت عن مصر التى تحولت إلى كفـر البطيخ.. بينما اختلت موازين الحوار والجدل بين أفكـار.. وأفكـار.. فقـد صــدر قـانـون تنظيم الصحافة ضد التقاليد والقواعـد القديمة والتيار الليبرالى الذى كان يتساءل إلى متى تستمر الثورة فى استخدام أسلوب القوة.. أو الذى كان يعتقد أن التحول فى اتجاه الاشتراكية سوف يكون ديمقراطيا.

واذكـر أنى كنت اكتـب افتتـاحيـات لـروزاليـوسف عن معنى المعارضـة فى مجلس الأمة قـائلا: إن الشعوب تؤيـد الثورات، حين تستخـدم القوة فى تنفيـذ مبـادئهـا، وفى القضاء على أعـدائهـا لكن الشعـوب ترفض بعـد ذلك أن تشعـر بأنها خـاضعة لحكم القـوة المجردة، وأنها تنفذ القانون وتحترمه لـوجود قوة خلفه تفرضه ولا شىء آخر.. الثـورة التى لاتغير أسلوبها فى الحكم ولا تحول قـواها الثائرة إلى تقاليد ثابتة تصبح طغيانا مكروها من الجميع.

وكـان عبـدالنـاصر يتحدث للجماهير قـائلا: إن القـوة لاتقـاوم الفكـرة، وإننا يجب أن نـرد على الأفكـار بـالأفكار. فكتبت أن هـذا الإعـلان له أهميـة لصدوره من قـائد الثورة نفسـه، مما يـدل على وعيـه العميق بالتطـور الضرورى فى أسلـوب الحكم، وقد رأينـا فى تاريخ العالم حكـاما وقادة ديمقراطيين يتطـورون إلى ديكتاتوريين يجمعون السلطة المطلقة فى أيديهم، ونادرا مـانرى حكاما يمتلكون السلطة المطلقة والقوة ويتخلون عنهما فى حكمة ووعى.

وهاهو ذا قانون تنظيم الصحافة يقول: إن عبدالناصر لم يتخل عن القوة، ولم يأخذ بعد برأيـه الذى أعلنه.. أن القوة لاتقاوم الفكرة بل الفكـرة هى التى تقـاوم الفكـرة، وكان واضحـا أن أمن النظـام وقـوتـه وتثبيت دعـائمـه هى الاستراتيجيـة التى يتحـرك بها عبدالنـاصر، وفى ظلها، وهى التى أملت عليه أن يسيطـر على الدور الصحفية فى البلاد سيطرة نهائية.

فـاليسـار انقض على أخبـار اليـوم ومصطفى أمين وعلى أمين.. وكنت أسمع فى روزاليوسف هجومـا حادا على الريدرز دايجست .. فأتذكر أنى كنت أعمل مع على أمين كل يـوم فى إعداد مجلة المختار المأخوذة عن الـريدرز دايجست الأمـريكية، وكنت شغوفـا بتجارب اللغة والكتـابة البسيطة التى يفهمهـا ويستوعبهـا القارىءالبسيط،

وأتابع مع على أمين تجاربه فى إلغاء نون النسوة والمبنى للمجهول الذى قد لايساعد القارىء على معرفة الفاعل فى الجملة، وكنت أرى أنها تجارب مفيدة وليست خيانة وطنية.. لكن الاتجاه العام لدى اليسار كان هو محاولة هدم «اليمين الرجعى» وفى نفس الوقت كان الاتجاه العام لدى اليمين أو أخبار اليوم هو مهاجمة اليسار الشيوعى الكافر الملحد، بينما هاجم تيار الإخوان المسلمين الجميع، وإن كان يتحالف أحيانا مع اليمين ضد اليسار باعتباره العدو الرئيسى.

وفى هذا البحر المتلاطم من الصراعات حاولت أن أبحث عن مفهوم الاشتراكية التى يتحدث عنها عبدالناصر.. وكنت لم أقرأ عنها فقد شغلت سنوات دراستى بقراءة مكثفة فى الفلسفة والتاريخ وتابعت تاريخ الحضارات دون أن انحاز إلى موقف سياسى يورطنى فى تنظيم أو حزب أتقيد بتعاليمه ومبادئه.

وكان كل شىء مختلطا.. اذكر أنى راجعت كلمة اشتراكية فى دائرة المعارف البريطانية لأعرف ماذا تعنى، وأعطانى كامل زهيرى كتابا ضخما عن الاشتراكية لكروسلاند أفزعنى عندما علمت منه أن هناك مائتى مدرسة ومذهبا فى الاشتراكية.

وكتبت مقالا أحاول أن أبسط فيه مفهوم الاشتراكية كما ورد فى دائرة المعارف، فإذا برجل من المخابرات يقول لى بصفة غير رسمية: إن ماكتبته هو الشيوعية وليس الاشتراكية التى ينادى بها عبدالناصر.. فقلت له: إن ماكتبته من قراءة للانسيكلوبيديا فنظر إلىَّ نظرة غير المصدق لما أقوله.. فزاد يقينى أن الحديث عن الاشتراكية وارتباطه بقانون تنظيم الصحافة يدخل فى سياسة الأمن وليس فى سياسة الثقافة أو حرية التعبير والفكر.. ومع ذلك كان لابد من محاولة تحديد المعانى.. فالاشتراكية عند بهاء علمية،

وعنـد إحسـان مـوقف من السلطـة وتأييـدهـا كصـاحب خبرة فى السياسـة، وعند مصطفى أمين وعلى أمين خطـر داهم.. وعند هيكل طريق جديد مفتوح سوف يكون أول من يحمل أخباره إلى القارىء بتفسيراتـه وشروحه الصحيحـة، وهى ـــ الاشتراكيـة ـ عنـد أغلب الشيوعيين بـونابرتيـة تعبر عن طموح وجموح فردى لعبـدالناصر، وهى عنـد آخـرين رأسماليـة دولـة، وهى عنـد الإخـوان المسلمين انحـراف عن الصراط المستقيم، وكـان الاهتمام بالمواقف الخاصـة سببا فى الانشغـال عن الوصـول إلى الاتفاق الأدنى بين الجميع على أهميـة احترام الـرأى وحـريـة التعبير، وكل يغنى على ليـلاه، وكل يتمنى سقوط الآخرين.

وسط هذا الغليـان المكبوت، فاجـأ عبدالناصر الجميع بـالقوانين الاشتراكيـة، التأميمات والمصـادرات وتحديـد الـدخـول وفـرض الحراسات، وكـان من المستحيل أن تطلق حريـة الفكر فى مـواجهة هذه الإجراءات.

فلم يسمح للصحف إلا بنشر التأييـد.. ولكن الـرفض والخوف كـانـا منتشرين فى كل مكـان، وسرعـان مـاأدرك عبـدالنـاصر أنـه لايستطيع أن يفـرض سياسـة اشتراكية أو غير اشتراكيـة دون أن تكـون هنـاك تهيئـة إعـلاميـة لها بين الجماهير، وقـد أدرك هـذه الحقيقيـة بقـوة بعـد انفصـال سـوريـا التى رفضـت القـوانين الاشتراكيـة فكانـت الدعـوة التى وجههـا عبدالنـاصر لفتح أبـواب الديمقـراطية وحرية الـرأى من خلال لجنة تحضيريـة تنشر وعيا بما هـو مطلـوب للمجتمع، لأنه بغير الـوعى الحقيقى قـد تتحـول الثـورة إلى مجرد هيـاج يضر ولاينفع وجموح بـلا عمل، وفـوضى بلانظام.

ودار حوار قوى أذاعه التليفزيون فى اجتماع اللجنة التحضيرية

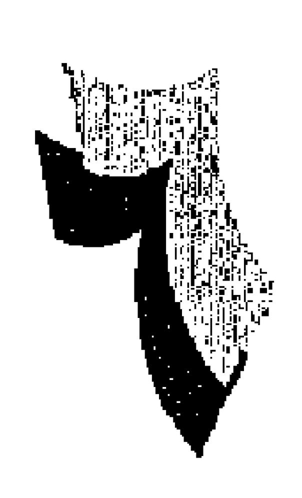
فى نوفمبر ١٩٦١ بين عبدالناصر والأستاذ خالد محمد خالد الذى فتح الحوار فى مشروعية الثورة نفسها.. وهل نحن فى ثورة أم هى مرحلة من مراحل التطور الطبيعى، وقال خالد محمد خالد الكثير مما كان يردده الخائفون عن الحرية ومعناها، وما هى حدود قيودها، الأحزاب وهل تعود إلى التعدد الحزبى أو نظام الحزبين أو الحزب الواحد أو لانعترف بها، وماذا عن المستقبل وكيف نتصوره، وخيل إلى من يسمع الحوار أنه يستطيع مناقشة رئيس الدولة ويطالب بمراقبة تصرفات الحاكم وسؤاله أى استجوابه بل وتغييره إذا أراد.

وتمخضت الاجتماعات عن إعداد الميثاق الوطنى وتحويل الاتحاد القومى إلى اتحاد اشتراكى دون أن يحدث تغيير حقيقى فى سيطرة الرقابة.. فلقد جاء الاتحاد الاشتراكى ليحدد أن «الحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب» هكذا صدر الحكم بتقسيم المجتمع إلى أعداء ومؤيدين، وهكذا عكس الاتحاد القومى الذى كنت أتصوره كما كتبت فى افتتاحيات روزاليوسف، يسمح بتكتلات متباينة التفكير ولكنها متعاونة فى نفس الوقت، تنظر إلى مصلحة المجموع وتراعى ظروفنا التى نمر بها ، لقد سقط هذا المعنى وقد أزعجنى وظهر هذا الانزعاج فى روايتى تلك الأيام وكنت أكتبها فى نفس تلك الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢

لقد فقدنا معنى الولاء للمصلحة العامة وسط دوامة الصراع بين تيارات ومصالح مذعورة.. وبهذه المناسبة قررنا فى مجلس إدارة روز اليوسف أن تتحمل المؤسسة دين إحسان وعائلته المخصص لبناء الدار ولم نستشر أحدا، وكان القرار شجاعا بوقوف يوسف السباعى مؤيدا له، وكان عادلا، ولكن كان هذا هو النجاح الذى يستطيع أن يحققه صاحب القلم.. أن يحافظ على حقوقه المادية

وسط الصراع الـذى فرض الـرقـابة الصـارمـة على حريـة التفكير، ليوجهها فى طريق دعوة لـلاشتراكية غير محددة المعالم بدعوى أنها نابعة من واقعنا، ولا تمتحنها أفكـار ناقدة أو معارضة.. بل يقتصر امتحانها على تقـارير تتـداولها أجهزة تهتم بـالأمن وليس اهتمامها بـالأفكـار، ومن أجل هـذا الاهتمام بـالأمن ظهـر التنظيم الطليعى السرى، وفـوجئت بـدعـوة لأن اضـم إليـه.. دعـوة أولى جـاءت عن طريق الدكتور عبدالقادر حـاتم فى مكتبه.. ودعوة أخرى جاءت عن طريق أحمد فؤاد رئيس مجلـس إدارة بنك مصر.. أيضا فى مكتبه فى البنك، وكـان كلاهما يطـالبنى بالسريـة المطلقة وأن أحـدا لايعرف بأمر التنظيم.

ولقد تناولت هـذا الموقف فى رواية زينب والعرش، وكيف انتهت رؤيتى للتنظيم بصيحـة أحـد رجال الثـورة إنـه تنظيم للاتصـال ولإبـلاغ القيادة بما يحدث فى القـاعدة، وليس للقـاعدة أن تتصـور أنها صـاحبـة أمـر ونهى فى أمور السيـاسـة.. إنها مجرد أسـلاك اتصـال مثل أسـلاك التليفون.. وقبل أن تتضح لى هـذه الصـورة وقعت فى كمين.. عنـدما قـال لى أحمد فـؤاد إنه بنـاء على طلب من عبـدالنـاصر تقرر أن ادخـل انتخابـات نقـابـة الصحفيين لمنصب النقيب!



عبد الناصر يرشحني نقيبا للصحفيين



وو كان ترشيحى لانتخابات نقيب الصحفيين ضد رغبتى الشخصية، فطبيعتى انطوائية، ولم أفكر يوما فى أن أقوم بخدمة عامة اختلط فيها بالناس، وأصدقائى معدودون، يقل عن عدد أصابع يد واحدة ، ومعارفى قليلون، ولا أحضر أفراحا ولا أمشى فى جنازات، وليس من السهل اقتحامى، ومن يفلح يكتشف أننى مصاب بحساسية مفرطة مرهفة، ومن هنا كان دخولى تجربة انتخابات أشبه بدخولى فى كابوس. ٩٩

ولقد تحملت التجربة بمشاعر مثالية شديدة الانضباط كعضو فى التنظيم الطليعى عليه أن يؤدى واجبه، وكنت أعجب لماذا وقع الاختيار على مثلى، وكان أحمد فؤاد ومعه أحمد حمروش يؤكدان لى أن مهمتى سوف تكون سهلة وان التنظيم سوف يتكفل بكل شىء، وما علىّ إلا أن أقوم بجولات فى دور الصحف وأعقد بعض الندوات، وقمت فعلا بزيارات للأهرام وأخبار اليوم ودار التحرير والهلال ووكالة أنباء الشرق الأوسط، والتقيت خلال شهر كامل عام ١٩٦٥ بالصحفيين كبارهم وصغارهم، المهتمين بالسياسة والمهتمين بكرة القدم، وقابلت رجال إعلام وخطاطين ومصححين، وسمعت بأسماء صحف لأول مرة، وتعرفت بوجوه جديدة.. واستمعت إلى الآراء التى تحتدم بين الصحفيين، وكان اهتمامى الأول بالأفكار النظرية المثالية التى كتبت عنها مطالبا بحرية الصحافة.

ولقد ناقشت حرية الصحافة ـ صدق أو لا تصدق ـ فى أشد الأوقات حساسية وحرجا بالنسبة لعبدالناصر.. وهى تلك الأيام التى أعقبت الانفصال بين مصر وسوريا. فقد أعقبتها موجة اعتقالات للرجعية القديمة التى تبادلت التهنئة فى انتظار سقوط عبدالناصر .. فوجه إليها ضرباته المتلاحقة، وسقط فوق رأسى سيف الرقابة، فأبلغنى إحسان عبدالقدوس ان لديه تعليمات بأن يراقب عملى كرئيس للتحرير فى صباح الخير، وحدث ذلك عقب محادثة تليفونية مع الدكتور عبدالقادر حاتم قلت له فيها: إننا يجب أن نعرف ـ كمصريين ـ كل شىء عن أسباب الانفصال، وانه لا معنى للاعتراض على نشر أخبار تصلنا من سوريا، وفقدت أعصابى هاتفا : إن والدتى موجودة فى سوريا مع شقيقتى، زوجة ضابط مصرى هناك، فأنا وغيرى من المصريين لابد ان نعرف الحقيقة، وبعد ساعات كان احسان عبدالقدوس يبلغنى انى أصبحت تحت إشرافه المباشر.. رئيس تحرير روزاليوسف يشرف ويراقب زميله رئيس تحرير صباح الخير.

ولقد ضايقنى الموقف فشرعت فى إعداد حملة عن حرية الصحافة بدأت نشرها فى صباح الخير يوم ١٩٦٢ واشترك معى فيها لويس جريس مدير تحرير صباح الخير فقدم مادة خصبة وغزيرة عن حرية الصحافة كما درسها فى أمريكا، وجاء بالمراجع القانونية والدستورية، أما حجازى الرسام فاشترك برسومه الكاريكاتورية، فرسم حرية الصحافة قطار «رجعيا» يصرخ: الحقونى حرية الصحافة حتموتنى، ورسم رجلا له وجهان وآخر يسأله «إيه رأيك» وينتظر الإجابة من كل وجه! ورسم مجموعة أطفال فى أسمال بالية وصحفيا ينظر إليهم فيتذكر انه على موعد لحضور عرض أزياء فى الهيلتون، وكتبت: ان حرية الصحافة هى

أحد مظاهـر الحرية الأساسية فى المجتمع.. أعنى حـرية الرأى التى بغيرها لا يكـون المجتمع صالحا للنمـو والتقدم.. والحريـة لا قيمة لها إذا لم يستطع الإنســان أن يعبر عـن أفكــاره وينشرهــا على الآخرين.

واستمرت حملـة حريـة الصحافـة ثلاثـة أسابيع، ولم يعترض عليهـا أحــد. كـان هـذا عــام ١٩٦٢ فلما دعيت للترشيح كنقيب للصحفيين خيل إلىّ ان الاتجاه إلى رفع الـرقـابـة وإطـلاق حــريـة الصحــافـة يعـود ويفــرض نفســه، وان الكلمات التى كتبتهــا أن الصحــافة لم تستطع أن تـؤدى وظيفتهـا الأولى، من تقديم أخبـار صادقـة دقيقة واعية لا تكـذب، قد لاقت ترحيبـا وكانت السبب فى ترشيحى لأن أتقـدم لمنصب النقيب وان الرقـابة الداخليـة قد زالت منذ عام ١٩٦٤ وأننا مقبلون حقا على عهد جديد.

لكن المنـاخ الســائد بين الصحفيين، كـان منــاخ شك وريبـة ومازالوا مع رســوم حجازى عن حرية الصحــافة، ومن بينها رسم شـهير لأسد يقـول: مفيش أحسن من أيام الرومان كـان اللى يقول رأيـه يـرمـوه لـلأسـود تـأكلـه!! فـالهمس بين الجميع ان الأســد عبدالنــاصر قادر على ان يلتهم من يعارضه، ومنــذ أن قدمت أوراق تـرشيحى فى الانتخــابات حــاصرتنى همســات تلـومنى وتشكك فى جدوى ما أقدمت عليـه أو تبدى أسفها لأنى ورطت نفسى فى أمور كان لابـد أن أترفع عنها، وكــان من المستحيل أن أشرح لكل هامس ما أنا فيه، فالتنظيم السرى هو الذى اتخذ قراره السرى بترشيحى، وسمعت من يقول: ما جدوى معركــة انتخابية فى نقابة الصحفيين. انت تتسرع وتخطـو فى أرض غير صلبة وكل مــا سوف تفعلــه هو إثارة زوبعــة فى فنجان، ولن تقــدم ولن تؤخــر شيئا، ولعل الأفضل هو عدم إثارة الزوابع.

كان الحماس للكلام عن حرية الرأى عام ١٩٦٢ يفتر الآن بعد مرور ثلاث سنوات، وغيوم اليأس تزحف وسمعت أيضا من يشجعنى لأسباب نظرية أو فلسفية مثل ان المثقفين محتاجون إلى العمل لا الكلام ويكفى أن تجربة دخولك الانتخابات تفتح أبواب المناقشة ولو حول المهنة وأهدافها.

وهناك من قال : إن الصحافة فقدت دورها القيادى للرأى العام، وهناك من هاجمنى لأن الصحافة مجرد أداة فى يد الحكومة، وفى خدمة السلطة وليست لدى الصحافة أفكار ومجموع الصحفيين أقل من جمهور مباراة بين الزمالك والأهلى ولا أحد يهتم - الآن - بالصحافة أو السياسة، ولا أثر ولا أهمية للصحافة وحرية الرأى التى يثرثر بها المثقفون فى أحوال العمال والفلاحين أو حتى رجال المال، وطبيعى ان أسمع من يحذرنى من التدخل فى الصحافة، لماذا؟ لأنه إذا كان هناك من يقدم المعلومات والخدمة الصحفية الحقة فهو رجل واحد اسمه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام وما عداه لا أهمية له على الإطلاق، وخوض معركة انتخابات فى نقابة الصحفيين لن يؤدى إلى تغيير مانشيتات الصحف ولا يحزنون !

وانتابتنى حالة مثالية دون كيشوتية. فتصورت انى مبعوث قيادة التنظيم السرى الطليعى للخلاص من هذا الجو المعتم اليائس الذى يسود مجتمع الصحفيين، وكنت أردد أن أعظم وأخطر مطلب للصحافة اليوم.. هو ذلك المطلب المتواضع.. إصدار صحيفة أو مجلة جيدة يستفيد منها الناس، وأننا فى طريق الانطلاق ودورنا المتواضع العظيم هو ان نجعل صحافتنا تكف عن أن تكون عقبة فى طريق الانطلاق، وكنت أصدق ان هذا واقعنا.. الانطلاق الذى انتظرته وتحمست له وزاد من حماسى ان اثنين من كبار

الصحفيين النقابيين وهما أحمد قاسم جودة وحسين فهمى أعلنا تنازلهما عن الترشيح لمنصب النقيب لصالحى، ودعانى الأستاذ قاسم جودة إلى الغداء فى منزله ليؤكد لى وقوفه بجانبى، وفى نفس الوقت كنت أواجه حماسا ينتهى إلى الاشفاق علىّ فأسمع إنى أقف معك.. إلا أنى أقولها بصراحة.. فوزك فى الانتخابات هو أكبر خازوق لك.. لأنه لا فائدة من أى شىء. من النقابة ومن الصحافة، وينتهى الكلام بضحكة ساخرة.. وهل نضحك على بعض!.. ولكن عندما اقترب موعد الانتخابات هاجت الدنيا وانهالت على الاتهامات بالشيوعية، والمعركة ليست حول الصحافة، إنها معركة سحق الشيوعية.. ولو كان هناك اختيار فلابد من اختيار الرجعية وليس الشيوعية.

وحاولت أن أتابع مصدر هذه الاتهامات، وفوجئت بأن أحد أعضاء التنظيم يذهب كل ليلة ويسهر فى نقابة الصحفيين ويعلن ان الشيوعيين سوف ينتصرون فى المعركة، وانهم سوف يعلقون المشانق للصحفيين الرجعيين، وأفزعنى الموقف وفكرت طويلا ثم قررت أن أواجه الأمر بأسلوبى الخاص، وكان الأستاذ حافظ محمود هو المرشح لرئاسة النقابة فطرقت بابه وقابلنى بترحاب لا يخلو من دهشة، وقلت له :إنى لا أريد أن أتورط فى اتهامات بالرأسمالية أو الشيوعية، ولست راغبا فى أن أكون نقيبا، ولا أجد حماسا لخوض المعركة.. كل ما فى الأمر ان جمال عبد الناصر كلفنى بأن أرشح نفسى.

فإذا بالأستاذ حافظ محمود يقول لى فى هدوء :

— وهو الذى كلفنى أيضا بأن أرشح نفسى.

وسألنى:

— من قال لك أن ترشح نفسك ؟.

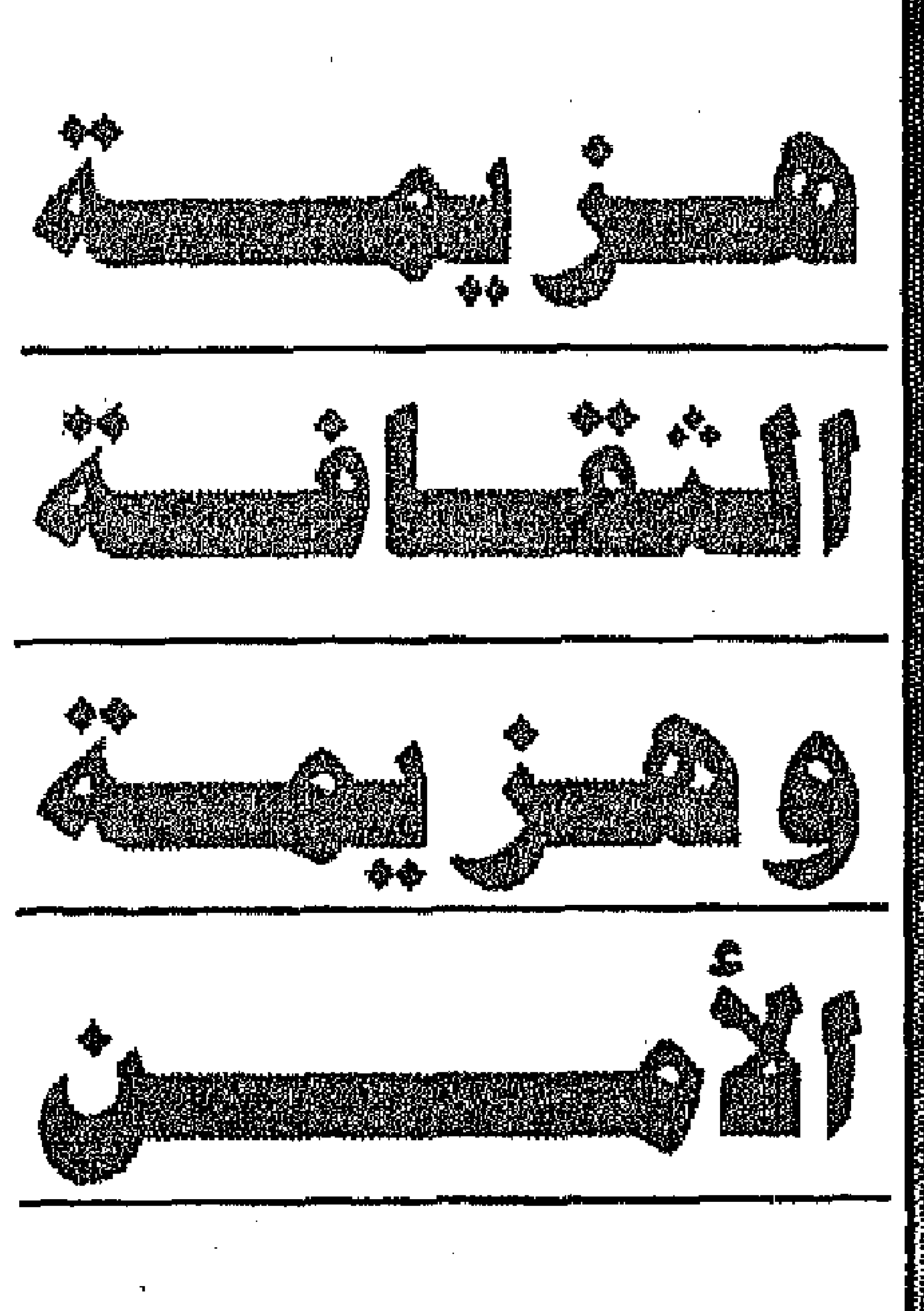
فارتبكت .. فلا أستطيع أن أبوح له بأسرار التنظيم الطليعى الذى يرأسه عبدالناصر. لكنه لم يتردد فى أن يقول بهدوء:

— زكريا محيى الدين هو الذى أبلغنى .

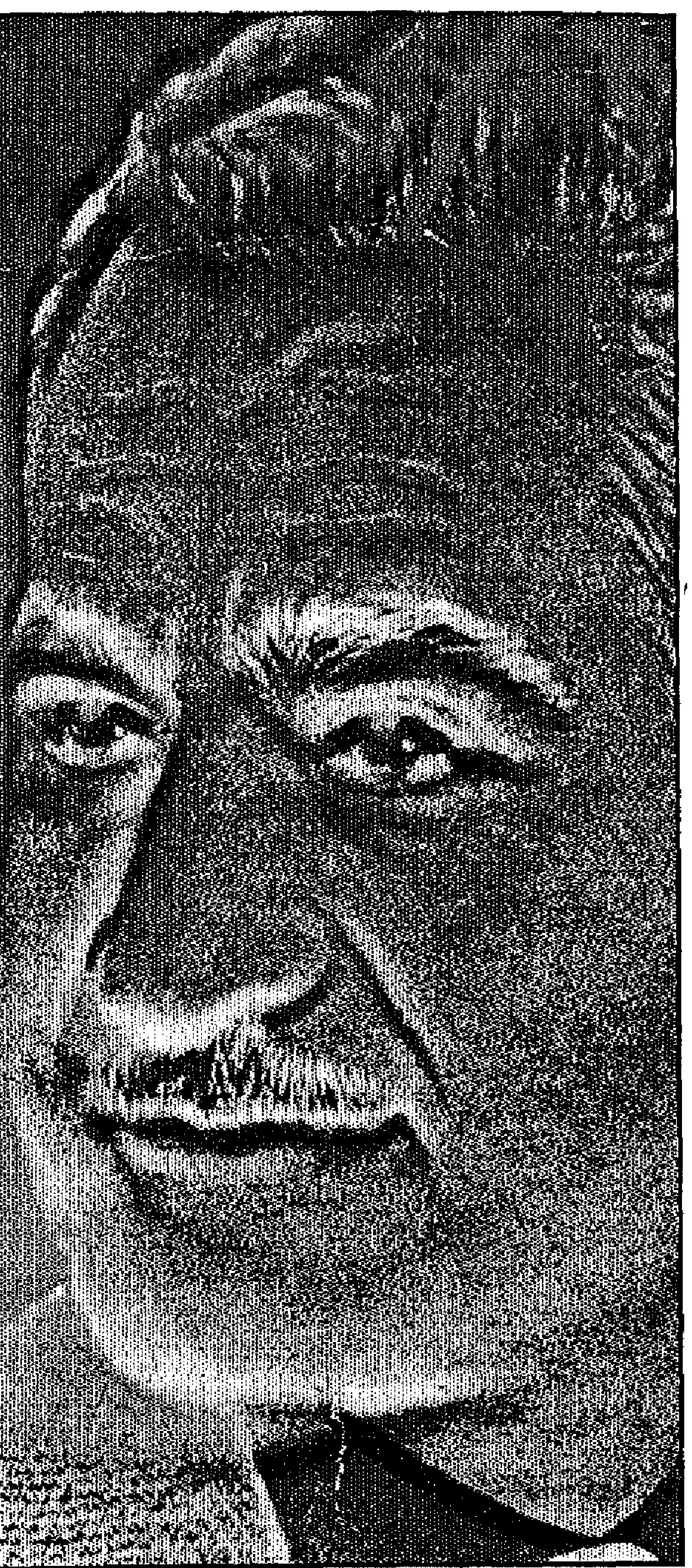
وفقدت حماسى تماما .. شعرت بأنى أقوم بتجربة علمية كفئران المعامل يراقبها صاحب التجربة.. وكان هذا هو بالفعل ما أراده عبدالناصر. فقد نجح الأستاذ حافظ محمود وهنأته فى نفس لحظة إعلان فوزه، وانتخبت عضوا فى مجلس إدارة النقابة، وسمعت فى مكتب عبدالناصر ان عملية الانتخابات كانت لدراسة قوة اليسار وقوة اليمين فى الصحافة المصرية، وجاء فى التقرير الذى راجعه عبدالناصر ان اليسار أقل لكنه أشد تماسكا، لأن الأصوات التى انتخبتنى لرئاسة النقابة هى نفس الأصوات بلازيادة أو نقصان التى انتخبتنى عضوا بمجلس النقابة.

وهكذا واجهت مرة أخرى استراتيجية الأمن ، ودعم السلطة، هو الذى يحرك قضايا الفكر وحرية الرأى، وهو الذى يحرك المناقشات والشائعات والاتهامات والحماس، وكل الجهود من أجل دعم السلطة وليس من أجل دعم الفكرة!





هزيمة الثقافة وهزيمة الأمن



❝ جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ لتكشف عن أخطاء وعورات كثيرة فى النظام السياسى للبلاد، لعل أبرز هذه الأخطاء - من وجهة نظرى — أن حرية الفكر خضعت لاعتبارات أمن النظام، بينما كان المفروض أن حرية الفكر هى الدعامة الرئيسية لشرعية وقوة النظام.

ولاشك أن جمال عبد الناصر كان يدرك هذه الحقيقية لكنه يخشاها ولا يطمئن إليها بحيث يراهن عليها. ❞

ووجدتنى مرة أخرى فى واحدة من هذه التجارب، عندما طلب على صبرى حضورى إلى مكتبه فى مصر الجديدة فى صيف عام ١٩٦٦.

وكنت فى ذلك الوقت رئيسا لمجلس إدارة وكالة أنباء الشرق الأوسط، وسألنى أن أكون رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير ورئيسا لتحرير الجمهورية. وكانت دار التحرير قد تحولت إلى ساحة معركة سقط فيها عشرات المحررين مطرودين من العمل، وقبض رجال الشرطة العسكرية على مدير المطابع وأودعوه السجن الحربى، وكان الصديق الكريم مصطفى بهجت بدوى قد تولى الإشراف على إدارتها كمفوض وهو ضابط من رجال الثورة وأديب وشاعر.

وقد سيطر على الاضطرابات وحاصر الخسائر الرهيبة فى

محاولة لإنقاذ سمعة الصحيفة التى أصدرتها الثورة والتى صدر الترخيص لها باسم جمال عبدالناصر، وكان أول من تولى رئاستها أنور السادات، ومن بعده صلاح سالم لتكون لسان حال الثورة، تتحدث باسمها وتدافع عن مبادئها.

وكان من الصعب أن أتصور اختيارى لهذاالمنصب، وليست بينى وبين على صبرى صلة شخصية.. وكان المرحوم على حمدى الجمال ـ رئيس تحرير الأهرام فيما بعد ـ أقرب الصحفيين إليه.. وقد عرض عليه على صبرى أن يتولى رئاسة دار التحرير، لكنه رفض بإباء وشمم أن يتورط فى هذه المأساة الصحفية القائمة فى دار التحرير.. وكنت أقابل فى نقابة الصحفيين عشرات الصحفيين والصحفيات المفصولين، يطالبون بالعودة ويسألون عن وظائف فى وكالة أنباء الشرق الأوسط، التى فصلت عشرات آخرين قبل أن أتولى رئاستها. وكنت وكيلا للنقابة وأشعر على نحو ما بمسئوليتى نحو هؤلاء الزملاء وقد حاولت منذ عام أن أرشح نفسى نقيبا عنهم يشرف على مصالحهم.

سألت على صبرى.. إذا كانت هناك شروط لقبول المنصب، فأكد لى أنى حر وعلى مسئوليتى.. فقلت له بوضوح ـ وبيننا من كبار المسئولين الأحياء من يشهد بصحة ما قلته ـ أنى لاأريد أن أعمل فى صحيفة ليقال إنها تحت إشراف على صبرى.. ولأواجه صحيفة أخرى تحت إشراف زكريا محيى الدين، ثم هناك الأهرام تحت إشراف محمد حسنين هيكل.. وكنت اذكر ماحدث لى فى انتخابات النقابة، وحديثى مع حافظ محمود النقيب، وأنا أقول له إن الذى رشحنى عبدالناصر.. فإذا به يقول له وأن الذى رشحه عبدالناصر.. والذى أبلغه بذلك زكريا محيى الدين.

كنت لاأريد أن أتورط فى شد وجذب بين تيارات فى السلطة

بينها منافسات أو حزازات، وقد استطاع على صبرى أن يخلصنى من هذه الشكوك، عندما قال لى: إن موعد إعادة كتابة الميثاق الوطنى قد اقترب، فنحن الآن فى منتصف عام ١٩٦٦، والميثاق ينص على إعادة كتابته عام ١٩٧٠ مع تشكيل اللجنة المركزية التى تضم تحالف قوى الشعب العامل.. وأن الرئيس عبدالناصر يرى أن الوقت قد حان لفتح باب الحوار حول الميثاق ومراجعته.

ومن هنا كانت الحاجة إلى صحيفة الجمهورية لتكون المنبر الذى يدور فيه الحوار.. الفكرة هامة.. ولا أستطيع أن أرفض عرضا بأن أتولى صحيفة تكون منبرا لحوار مفتوح بلا قيود.

وأضاف على صبرى قائلا : إنه سوف يبدأ بنفسه ويكتب رأيه فيما يجب أن يكون عليه تشكيل اللجنة المركزية والمبادىء التى يتبناها الميثاق بعد مراجعته عام ١٩٧٠. وشرع بالفعل فى كتابة باب يومى، كان يمليه على حسنى الحديدى ويرسله إلى فلما نشرته فى الصفحة الأولى للجمهورية قامت الدنيا ولم تقعد.. وقال لى هيكل ماهذا الذى يكتبه «على» وقال إن زكريا محيى الدين يرى أن هذا الذى يكتبه على صبرى سوف يؤدى إلى حرب أهلية.. كان على صبرى يهاجم ماوصفه «بالقوة المضادة لحركة التطور الثورى».. وحددهم بجميع الأشخاص الذين تناولتهم القوانين الاشتراكية، والطبقة التى أصابها التطلع الطبقى.

وأعلن أن هناك حزبا رجعيا قائما بيننا فى مصر يبحث عن مصالحه الذاتية ويستغل صفات التسامح والرحمة التى يتميز بها الشعب المصرى.. وأن بين «القيادات» المحرومة من الفكر الصلب والرؤية الواضحة قبولا للأفكار المسمومة التى يبثها أعداء التطور الاشتراكى وهى قيادات ضعيفة وهى جناح فى الحزب الرجعى.

ولاشك أن على صبرى فى هجومه قد أزعج قيادات كثيرة ربما

كان من بينها القيادات التى يمثلها المشير عبدالحكيم عامر وحاشيته.. ورجال المخابرات - الذين تعرضوا لمحاكمات بعد هزيمة ١٩٦٧ - وقد أدرك كثيرون أن على صبرى يمثل اتجاها فى السلطة يريد إجراء عملية تغيير شامل فى أجهزة الحكم.

وكان لابد من مقاومة هذا الخطر الذى يمثله على صبرى وينذر به فى مقالاته اليومية.. إنه يدعو إلى عملية تطهير شاملة بين القيادات التى يتعامل معها عبدالناصر.

وتحدثت مع على صبرى فى الأمر، ونقلت له رأى هيكل كما تحدثت معه فى مناسبة أخرى عن تأثير انفصال سوريا عن الجمهورية العربية فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، وتأثير هذا الحادث على المشير عبدالحكيم عامر وحالته النفسية.. ومحاولته للسيطرة على دار التحرير والتى انتهت بالقبض على محررين، وطرد محررين وتعرض الدار إلى الإفلاس.

وخطر لى أن أسأل على صبرى إذا كان من الممكن أن يكتب المشير عامر مذكراته عن انفصال سوريا، وقد كان حاكما فى دمشق.. عندما وقعت أحداث الانفصال.. فنظر إلى على صبرى نظرة من يستريب فى قواى العقلية لأن ذكر كلمة واحدة عن سوريا أمام المشير، أمر لاتحمد عقباه.

وجاء يوم عيد وكان عبدالناصر قد دعا كل رجاله إلى برج العرب.. ومن هناك اتصل بى على صبرى ليقول لى إن عبدالناصر فتح أمامهم جميعا - أنور السادات وحسين الشافعى وزكريا محيى الدين - موضوع المقالات التى يكتبها فى الجمهورية.

وقال لهم إنه بدلا من الشكوى أو الاعتراض، من الممكن أن يكتبوا أيضا رأيهم فيما يجب أن يكون عليه الأمر عام ١٩٧٠ ومستقبل مصر. وقال على صبرى: لن يكتبوا وكل مايريدونه لن

يوقف كتابة مقالاتى، وكان مبتهجا لأن عبد الناصر ـ فى رأيه ـ قد أحرجهم.

هنا كانت الصورة واضحة أمامى.. عبدالناصر يريد أكثر من رأى، ويريد حوارا.. لكن مخاوفه على أمن النظام كانت أكبر من ثقته فى ضرورة فتح الباب لحرية الرأى والرأى الآخر.

كانت استراتيجية الأمن أقوى عنده من استراتيجية الثقافة.. والأمن أولا ثم تأتى الثقافة وكان لايدرى أنه يراهن على فقدان الثقافة.. وأن الأجيال التى عاصرته فى الستينيات بما لها من ثقافة قوية، إنما نضجت وحصلت على معارفها من مدارس وجامعات وأحزاب تمرست بالفكر الليبرالى.

وكان حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين يخطب فى قاعة الاحتفالات الكبرى قبل الثورة وكان لويس عوض فى نفس الوقت يدعو إلى جماعة ثقافية للموسيقى الكلاسيكية، وكان محمد مندور يطرق آفاقا اشتراكية.. بينما عبدالرحمن بدوى يترجم كتب نيتشة وشنجلر ويكتب رسالته عن الزمان الوجودى.

ولقد نجحت الثورة لأن المثقفين فى مصر قد جعلوا من مجتمعهم بوتقة تنصهر فيها كل الأفكار بلا استثناء.. وكان الفكر العربى والتراث الإسلامى يتألق وهو يحتك بثقافات أجنبية يغالبها ويحاورها ويتصدى لها أحيانا ويتفق معها أحيانا.. وشباب الأربعينيات وسنوات مابعد الحرب العالمية الثانية والخمسينيات، هم الذين بلغوا الذروة الثقافية الأدبية.. بينما المناخ السياسى بعد الثورة والخطوات الرقابية التى اتخذها لم تساعد على نمو أجيال جديدية لم تجد فرصتها لتبادل الرأى.. ولم تتعرض لاختلاف المدارس الفكرية وتنوع الثقافات والسياسات الحزبية من وفد إخوان مسلمين ومصر فتاة وكتلة وسعديين وحزب وطنى وتنظيمات شيوعية..

لقد سـار الشباب الجديد فى طـريق هيئة التحـرير.. ثم الاتحاد القومى وأخيرا هاهو ذا الاتحاد الاشتراكى وقياداته لاتريد الحوار.. وتعترض على فتح بـابه، وعبـدالنـاصر قلق مشغول بأمن النظـام، وحساسيات المشير وحاشيتـه، ولا يرتاح فى نفس الوقت إلى الحرب الباردة بين القوتين العظميين الاتحاد السوفيتـى والولايات المتحدة. ويخشى أن تشترى هاتان القوتـان أصوات المثقفين. وتمول أحزابا عميلـة لها. ولم يصل عبـدالنـاصر إلى اقتنـاع كـامل بأن المثقف المصرى أقـوى من هذه التيـارات كلها، وتصـور أن النظام القـوى بقيادتـه يصون الثقـافة المصريـة والعربيـة من التأثيرات الـدخيلة والخيـانـة والعمالـة، ولم يتصور قط أن قـوة الفكـر الحر كفيلـة باكتشـاف الأدوات الصحيحـة لأمن النظـام.. سـواء فى المجال العسكرى أو الاقتصادى أو السياسى.

ولما حـدث انهيـار يـونيـو ١٩٦٧، ثبـت أن خطأ جسيما قـد ارتكبناه فى حق ثقافتنا وقدرتنا على التفكير والنقد والمصارحة.

ولقـد ظهر التردد الشـديـد لـدى عبدالنـاصر فى الاستمـرار فى سياسة فتح باب الحوار من أجل إعادة كتـابة الميثاق ..عندما طلب من على صبرى إيقاف كتابـة مقالاته، وكان مستمـرا فى الكتابة عن المسئولية التاريخية التى تنتظر تشكيـل اللجنة المركزية، والقضايا التى تثيرهـا القـواعـد الشعبيـة والمسئـوليـة الاجتماعيـة للجنـة المركزية.. وكان آخر ماكتبه عن أهمية اللجنة المركزية تجاه التطور الثورى ومـراحل التحول الاشتراكـى يوم ١٨ مـايو ١٩٦٧.. بينما مـانشتات الصحف فى مصر والعـالم ملتبهة بعـد طلب عبدالنـاصر سحب قوات الطوارىء الـدولية من خط الهدنة بين مصر وإسرائيل وإغلاق خليج العقبة.

واتصل بى على صبرى وأبلغنى أنـه سيتوقف عن كتـابة رأيـه،

وسألنى إذا كان فى استطاعتى أن أجمع مقالاته فى كتاب تطبعه وتنشره دار التحرير فوافقت وأبلغنى أن المشير عامر تولى الإشراف على الاعلام المصرى.. التليفزيون والإذاعة والصحافة.. وهكذا توقف الحوار وقامت الحرب وكانت الهزيمة، وكان من أول نتائجها قرار أصدره عبدالناصر بعدم توزيع كتاب على صبرى وكانت صحيفة الجمهورية قد نشرت إعلانا عن صدوره قريبا.

ثم كان أن صدر قرار بفرض رقابة مشددة على الصحف نتيجة مقال نشرته الجمهورية يوم ١٩ يونيو بعنوان «القوات المسلحة والعلاج الجذرى» بقلم الأستاذ سعيد الخيال، جاء فيه: قواتنا فى موقف بالغ التعقيد بعد أن ضمن العدو لنفسه التفوق بل التفرد فى الجو منذ البداية.. والجيش نفسه لايمكن أن يلام على ماحدث بل على العكس فإننا ندرك موقفه البالغ الصعوبة والمتاعب والآلام المادية والمعنوية التى احتملها..

وحذار أن نقول ان المسألة مسألة أشخاص يخلفون أشخاصا.

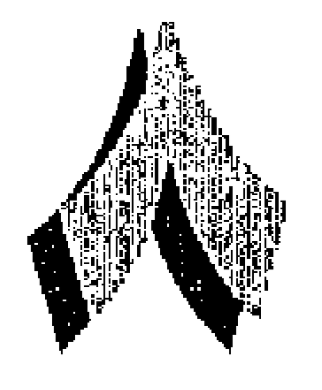
وهاجم الأستاذ سعيد الخيال نظرية أن الجيش هو الشعب منظما والتى على أساسها تكررت عمليات الاستعانة برجال الجيش فى نواحى الحياة المدنية.

هذه النظرية أدت إلى تسرب الحياة المدنية بأساليبها وسلوكها وتطلعاتها إلى الجيش مما أضعف الحدود الفاصلة بين ماهو عسكرى وما هو مدنى. وصرف كثيرا من الاهتمام إلى مجالات أخرى، حتى أصبح القفز إلى هذه المجالات ينازع روح التخصص العسكرى.. ونذر الحياة للجيش.. والبطل المحارب الذى يستعذب التضحية ويحتضن الواجب العسكرى. والحرب هى أشق مايحتمله الإنسان، والتنعم آفة المحارب.. والامتيازات هى كالسوس توهن قوة الاحتمال وتنمى روح المحافظة بدلا من الروح الثورية.

وختم سعيد الخيال مقاله بأن النفوس مهيأة، وعزيمة الشعب حديد والظروف ملحة فى وجوب سرعة العلاج الجذرى مع الحكمة، وأمل الشعب معقود على قائده جمال عبدالناصر.

وصباح يوم صدور الجمهورية كان منير حافظ يتصل بى من مكتب سامى شرف، ليطمئن على قواى العقلية، إذ كيف أسمح بنشر مقال كهذا.. ألا تعرف أن مائة لمبة حمراء قد أضاءت فى مائة مكتب تدرس نتائج هذا المقال وتأثيره فى مواقع كثيرة.. كان يتحدث عن الأمن.. لأنه أهم بكثير من الوصول إلى فهم لما حدث، أو مناقشة الهزيمة، وإذا كان لابد من دراسة، فليس أمام الجماهير، وبعيدا عن العقول المصرية خارج نطاق الأمن وسيطرته.

وجاء العصر، ليتصل بى محمد جسنين هيكل من مكتب عبدالناصر ليقول لى نفس ماقاله منير حافظ ويضيف بلهجة ساخرة: إنى المسئول عن سيف الرقابة الذى هبط على الصحافة من جديد!



ممنوع من الكتابة.. ممنوع من النشر

«« عادت الرقابة على الصحف فى محاولة يائسة لإيقاف أو صد تيار جارف من النقد والإدانة لأسباب الهزيمة الأليمة التى لحقت بالمصريين فى حرب يونيو ١٩٦٧. »»

وكان الصحفيون أول من واجه غضب الجماهير. فلم يعد يوجد قارىء يثق فى أخبارهم ومقالاتهم، وفقدت أجهزة الإعلام الأخرى: الإذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء ـ مصداقيتها بعد الصدمة العنيفة التى صعقت جماهير كانت منتشية بصوت أحمد سعيد يجلجل فى صوت العرب معلنا أن أقدام جنودنا تدق أرض تل أبيب، ومانشيتات الصحف تبرز باللون الأحمر فى صفحاتها الأولى سقوط عشرات من طائرات العدو محترقة بعد هجومها الفاشل على مطاراتنا المصرية.. فإذا بجنودنا قد انسحبوا غرب القنال وسقط فى الأسر من سقط وقتل وجرح آلاف، ووقف العدو على الشاطىء الشرقى لقناة السويس. أما طائراتنا فقد دمرتها هجمات خاطفة قامت بها الطائرات الإسرائيلية فى صباح يوم ٥ يونيو.

كانت مانشيتات الصحف كاذبة، ونشرات أخبار الإذاعة كاذبة، وأنصت المصريون لمحطات الإذاعة الأجنبية الـ«بى.بى.سى» و«صوت أمريكا» و«الإذاعة الإسرائيلية»، ولقد واجهت هذه المحنة بكل عنفها. عندما وجدت على مكتبى فى العاشرة من صباح يوم ٥ يونيو صور طائراتنا محترقة، وكان مصور جريدة الجمهورية يصحب المشير عبدالحكيم عامر وقائد القوات العراقية فى جولة

بالطائرة للتفتيش على بعض المواقع العسكرية، ثم اضطرت طائرة المشير إلى الهبوط على عجل، ولم يجد مصور الجمهورية سوى الطائرات المحترقة التى أصابتها الطائرات الإسرائيلية المهاجمة ليلتقط صورها، ولتكون شاهدا على حقيقة ما يحدث، بينما صوت العرب يسقط العشرات من طائرات العدو، ولا يذكر ما يشير ولو من بعيد إلى الحقيقة أو يحاول أن يمهد لها، وكنت غاضبا وتذكرت ماكتبته ونشرته فى روزاليوسف عام ١٩٦٢ فى روايتى «تلك الأيام» وفيها شخصية أستاذ التاريخ سالم عبيد والذى كان عضوا فى لجنة كتابة الميثاق الوطنى يراجع فى خواطره حديث أستاذه فى السوربون مسيو لافارج وهو يقول له: «إن بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة. إن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تدرس تفاصيل الأحداث، ثم تقف فى قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة لتختار التفاصيل المناسبة اللائقة وتسردها أمام الطلبة.. لاشىء أكثر من هذا ياعزيزى.. أو السجن.. نصف الحقيقة وتحيا.. كل الحقيقة والمقصلة ياعزيزى».

كانت صور الطائرات المحترقة تتحدانى فها هى ذى الحقيقة. كيف أواجهها، وأمسكت بالتليفون وطلبت مكتب سامى شرف، وجاء صوت منير حافظ لا يخفى قلقه، وعرف بأمر الصور فأمهلنى برهة، ثم طلب إرسالها إلى مكتب الرئاسة بمنشية البكرى فورا، لاحقيقة ولا نصف حقيقة ولا شىء على الإطلاق سوى الانتظار لشىء ما .

معجزة .. ربما ، وتذكرت مرة أخرى سالم عبيد وهو يتحدث عن مسئولياته نحو مشروع الميثاق الوطنى.. انتهت الأحلام والمعجزات.. والمستحيلات.. كل ما نشرته .. كل ما قلته لتلاميذى لم يخرج عن أن يكون أنصاف حقائق، ثم أرباع حقائق.. ثم.

لاشيء.. مجرد رغي.. دردشة.. لا حقيقة على الإطلاق.

ويتحدث سالم عن مشروع الميثاق قائلا: لقد قرأت مشروع الميثاق.. عندك مثلا فقرة فى الباب الرابع تحت عنوان درس النكسة: وعمت الشباب المصرى موجة من السخط والغضب مع كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده.. ولقد ترددت فى مصر فى ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص.. وتجاوبت أصداء انفجارات القنابل.. وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها.. لم تكن هى الثورة وإنما كان ذلك هو التمهيد لها.. كانت تلك هى مرحلة الغضب التى تمهد لاحتمالات الثورة، إن الغضب مرحلة سلبية.

ويتساءل سالم عبيد ما معنى أن الغضب مرحلة سلبية.. مامعنى السخط.. مامعنى أصداء طلقات رصاص وأصداء انفجارات قنابل.. مامعنى اتجاهات وأساليب التنظيمات السرية، قف عند كل كلمة وحاول معرفتها فى الحياة.. فى اللحم والدم.. فى القلب والعقل، إلى أين تنتهى لك المعرفة.. سالم عبيد عندما حاول أن يعرف معنى هذه الكلمات.. اكتشف انه لا يعرف شيئا على الإطلاق.

وأفقت من خواطرى وصوت صلاح زكى يسألنى عن كلمة، فالإذاعة والتليفزيون فى حالة استنفار للمعركة، وتحدثت معه بالكلمات التى كتبتها فى الصفحة الأولى للجمهورية، كانت كلمات غريبة لا تتفق مع الطابع الحماسى الملتهب الذى يردده «صوت العرب»، كنت أتحدث عن المعركة الطويلة، عن المساحة الاستراتيجية للأمة العربية، عن امتدادنا الجغرافى فى السودان، ولم أتحدث عن اقترابنا أو اقتحامنا تل أبيب. كان الألم يعتصرنى، بعد ثلاثة أيام سقطت فى مكتبى لأكتشف فى مستشفى العجوزة أول إصابة لى بارتفاع ضغط الدم.

وانفجر كتاب كثيرون، فكانت مواجهتهم بالمنع من الكتابة، وانتقل يوسف ادريس إلى «الجمهورية» ومعه تعليمات بمنعه من الكتابة، وكان مريضا فساعدته على السفر إلى روسيا للعلاج، واحتفظ بخطاباته التى أرسلها إلىّ يعبر فيها عن تصميمه على استرداد عافيته وصحته النفسية، ويعدنى فيها بالكتابة عند عودته، أما عبدالرحمن الشرقاوى فقد واجه منع نشر روايته «الفلاح» ومسرحيتى «الحسين ثائرا والحسين شهيدا».. فواجهت المنع بقرار مضاد بنشر الرواية والمسرحيتين، وتحملت مسئولية عدم إطاعة الأوامر.

وجاءنى موسى صبرى مفصولا من «أخبار اليوم» تسبقه تعليمات بعدم استقباله، وكتب موسى فى كتابه عن وثائق ١٥ مايو كيف ذهب إلى محمد حسنين هيكل فقال له: إن انتقاله إلى «الجمهورية» لا يعنى أن الدار سوف ترحب به، لكنه فوجىء باستقبالى ولا داعى لأن أنقل ما كتبه موسى فى كتابه أو فى افتتاحيات نشرها فيما بعد عند عودته إلى صحيفة «الأخبار»، كان يعرف أنى تحديت التعليمات من أحل الحفاظ على كرامته.

ووصلنى خطاب رسمى من محسن أبو النور بصفته أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى يبلغنى فيه بفصل حسين عبدالرازق من عضوية الاتحاد، وبالتالى فصله من عمله فى صحيفة «الجمهورية».

وأرسلت خطابا مضادا إلى محسن أبو النور أبلغه فيه أن فصل حسين عبدالرازق من الاتحاد الاشتراكى لا علاقة له بعمله فى مؤسسة صحفية ليس لديها ما يبرر اتخاذ قرار بفصله، ولاشك أن رجلا احتفظ له باحترام كبير وقف إلى جانبى فلم يتدخل فى قراراتى، رغم أنها خالفت بعض تعليماته، وهو محمد فائق وزير الإعلام فى ذلك الوقت، وكان ينقل إلىّ عدم ارتياحه لمجموعة الكتاب

الكبار، ولكنه تعامل معى على أنى المسئول عن تصرفاتى وأتحمل نتائجها.

غير أن الموقف إلى جانب كتاب وصحفيين تعترض الرقابة عليهم لم ينقذ سمعة الصحافة التى فقدت ثقة القراء، ولم تعد مصدر أخبارهم ومعلوماتهم السياسية، واكتفوا بمتابعة أخبار كرة القدم ومبارياتها، فكانت انتصارات الأهلى أو الزمالك هى التى ترفع التوزيع أو تخفضه وتعليقات نقاد الرياضة أكثر حرية وحيوية من التعليقات السياسية المملة التى تتناول «النكسة» وهى غير «النكسة» التى تحدث عنها الميثاق. لكن صبر الجماهير نفد بعد صدور أحكام الطيران التى تناولت أسباب الكارثة التى لحقت بالطائرات والمطارات فى أول يوم من أيام الحرب.

واندلعت المظاهرات فى الجامعات وانطلقت فى الشوارع، وسمع الصحفيون هتافات معادية أمام دور الصحف، وكانوا فى نفس الوقت لايستطيعون كتابة الأخبار الحقيقية عن المظاهرات، فالتعليمات تصور الأحداث كما لو كانت مؤامرة، ولا علاقة لها بغضب جماهيرى حقيقى، وكانت نقابة الصحفيين قد ناقشت أمر الرقابة وطلبت إلغاءها فى كل ماهو بعيد عن المعلومات العسكرية. وعقد مجلس النقابة اجتماعا برئاسةالنقيب أحمد بهاء الدين، وأصدر بيانا كتبه بهاء ووقعه أعضاء المجلس يطالب بالاستجابة لمشاعر ورغبات الجماهير فى محاسبة المسئولين فى جميع مجالات العمل فى مؤسسات مصر وإصدار القوانين التى تكفل الحريات العامة والضمانات الخاصة بالأفراد.

وكان أحمد بهاء الدين لبقا وحاسما فى نفس الوقت كعادته، وهو يذكر أن هذا البيان يؤدى ما يطالب به عبدالناصر من توسيع قاعدة الديمقراطية ومحاسبة المسئولين الذين تسببوا فى الهزيمة.

ويروى جميل عارف فى كتابه الذى صدر أخيرا «أنا.. وبارونات الصحافة» القصة الكاملة لهذا البيان وكيف أن عبدالناصر غضب لصدور البيان واعتبره طعنة فى الظهر وذلك نقلا عن رواية لسامى الدروبى الأديب الكبير والسفير السورى الذى قال: إن عبدالناصر هو الذى حدثه فى هذا الأمر باعتباره صديقا لأحمد بهاء الدين.

ولم يحدث تغيير فى موقف الرقابة. لكن البيان الذى أصدره مجلس النقابة فى آخر فبراير ١٩٦٨ سبق بشهر واحد بيان ٣٠ مارس الذى أعلن فيه عبد الناصر عن بدء عهد جديد لتحرير الأرض وإزالة آثار العدوان وتوسيع قاعدة الديمقراطية وإجراء انتخابات جديدة للاتحاد الاشتراكى.

وكان من الطبيعى أن يسود الشعار المرفوع «لا يعلو صوت فوق صوت المعركة» لكن للأسف الشديد. لم تحدث محاولات جادة لتعميق الديمقراطية، أو إتاحة الفرصة لحوار جاد كذلك الذى حاولنا أن نبدأه قبل الحرب بمقالات على صبرى .

وكان هناك «بالجمهورية» قسم للأبحاث. فيه مجموعة من خيرة الشباب المثقف، كان يشترك معهم بالمناسبة مصطفى الفقى قبل حصوله على الدكتوراه. وكان من أبرز الكتاب فتحى عبدالفتاح وطاهر عبدالحكيم وحسين عبدالرازق ومحمد أبو حديد وجلال السيد والدكتور محمد أنيس وغيرهم كثيرون، لكن العيون كانت مركزة عليهم.

وذات يوم قال لى أنور السادات فى بيته بالهرم أن أحذر من هؤلاء الكتاب وخص بالذكر طاهر عبدالحكيم. وكنت أستمع إلى مثل هذه الملاحظات فلا أذكرها ولا أجعلها سببا لحرمان واحد منهم من نشر مقالاته. لكن الجو العام كان مختنقا لا يسمح بامتداد المخيلة لآفاق مابعد الحرب، على نحو ما يفعل المحاربون

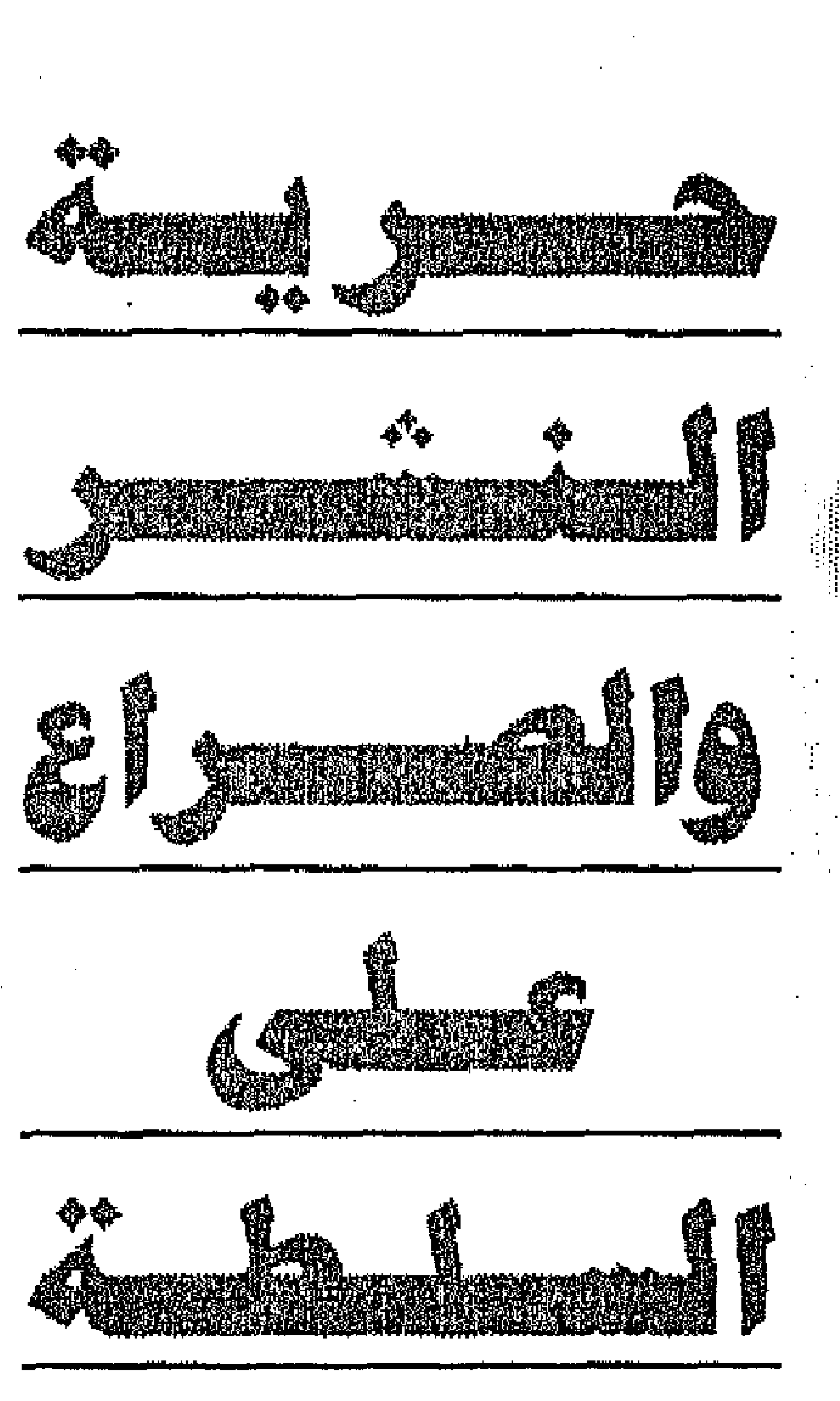
عادة. إذ يكـون جزءا من همومهم فى الحرب، ما سوف يكـون عليه الحال بعدها.

وجـاء موعـد انتخـابات النقـابـة. وتقدم كـامل زهيرى لترشيح نفسه نقيبـا لأول مرة. وكـان علىّ بصفتى وكيـلا للنقابـة أن أكون رئيسا للجمعية العمـومية فى غياب النقيب وفى انتظـار انتخابه، وفى هذا الاجتماع طلب يوسف إدريس الكلمة وتحدث عن ضرورة إلغاء الرقابة على الصحف وتلاه صلاح جاهين.

ورغم كل المحـاذير والتعليمات لم أتـدخل لتعطيل طلب الكلمـة، واتخذ الحاضرون بالإجماع قرارا بإلغـاء الرقابة، وهـو قرار أخطر من بيان يصدر من مجلس إدارة النقـابة، لأنه يمثل مطلب الجمعية العمومية للنقابة، وفى تلك الليلة فاز كامل زهيرى برئاسـة النقابة.

أمـا لجنة الـدعـوة والفكـر فى الاتحاد الاشتراكى، فقد أصـابها الـذعـر. وقال رئيسهـا فى اجتماع مع مجلس النقـابـة الجديـد. إن أجهزة التصنت كانت مبثـوثة فى القاعة التى انعقـدت فيها الجمعية العمـوميـة، وكـانـوا يستمعـون فى أكثـر من جهـة لما يحدث فى الاجتماع.. وكان مطلب إلغاء الرقابـة مؤامرة أو انقلاب بينما كانت التجـربـة تبشر بأن السماح بحـريـة التعبير عن الـرأى هى دعـوة لانطـلاق فى البنـاء والابـداع وليست دعوة للإنفجار والتدمير.





حرية النشر والصراع على السلطة



«كان عبد الناصر يخوض أكثر من معركة ومن بينها معركته مع المرض وكانت الناس لا تعلم ما يجرى بين قيادات «الثورة» وقد طرح مرض عبد الناصر عليها ذلك السؤال الرهيب. من يخلف القائد؟ ولقد سمح لى موقعى فى دار التحرير أن أواجه بعض المواقف التى كشفت المناورات التى تدور فى الكواليس بين رجال عبد الناصر لدعم وجودهم فى السلطة وفى انتظار الوقت المناسب لتولى الخلافة.»

ومن الطبيعى أن تكون الرغبة فى تولى السلطة قائمة فى الرجال الذين قاموا بالثورة. ومنصب الرئاسة يحتاج إلى «من تأتيه الخلافة منقادة» وأذكر بهذه المناسبة حديثا جرى بينى وبين صحفى روسى أثناء زيارة قمت بها للاتحاد السوفيتى فى وقت لاحق، وحدثنى الصحفى عن تجربته ثم الانقلاب المضاد الذى انتهى إلى وصول الرئيس سوكارنو إلى الحكم، وقال لى الصحفى: إن الأزمة فى اندونيسيا بدأت منذ عرف رجال «سوكارنو» انه مصاب بالسرطان. فتحركت قيادات وقوى كثيرة تريد الانقضاض على منصب الرئيس المريض لأن هذه هى طباع البشر.

وأعود إلى عبدالناصر بعد أن ألقى بيان ٣٠ مارس، وأعلن عن انتخابات جديدة للاتحاد الاشتراكى، وقد أجريت الانتخابات بالفعل وتم تشكيل المؤتمر القومى، واللجنة التنفيذية العليا، وحدث

أن حصل على صبرى على أكبر نسبة من الأصوات، وكان هذا يؤهله لأن يرأس اللجنة السياسية، وفوجئت بالسادات يتصل بى ويطلب أن تقف الصحافة إلى جانبه، وكان يشكو من أن الأهرام والأخبار تتعمدان إهمال أخباره. وسبق أن سافر إلى إيران فلم تهتم الصحف برحلته. لولا أنى كلفت إبراهيم نوار رئيس التحرير التنفيذى للجمهورية بأن يصحبه فى رحلته، وعاد إبراهيم وكتب تحقيقات صحفية تحدث فيها عن براعة السادات فى اللغة الفارسية والأشعار الفارسية التى يرددها، وحكى عن جلساته مع السادات أثناء سفره وضيقه بإهمال الصحافة لأخباره.

وها هو ذا السادات يطلب من جديد المعاونة، وذهب إليه إبراهيم نوار، فطلب منه السادات أن تهتم الجمهورية باجتماع اللجنة السياسية، وقال إنه يريد أن نستعد بمصور لأنه سوف يبكر فى الحضور إلى قاعة الاجتماع ويجلس فى مقعد الرئيس، وعندما يأتى الآخرون — ومن بينهم على صبرى - سيضطرون إلى الجلوس على المائدة من حوله، وبذلك تصبح قضية اختيار أو انتخاب رئيس للجلسة ثم رئيس للجنة السياسية محسومة بالأمر الواقع.

كان واضحا لى أن السادات يريد السلطة، ويستعد لها، ويرى انه أكثر رجال الثورة أحقية بخلافة عبدالناصر. وكنت أعجب للذين يتهمون السادات بعدم الفهم، أو بالتهريج فى جلسات المشير عبدالحكيم عامر ولايزون فيه ذلك الجانب الشديد الصرامة والدهاء فى الإعدادللسلطة. وحرصه على متابعة النشر عنه. وبعض كبار المسئولين كان يقول عنه بالحرف الواحد: « إن الذى يشغله هو طبق الملوخية الذى سوف يأكله عندما يعود إلى بيته»، ويفسر وجوده فى منصب «نائب الرئيس» بأنه شخص ضعيف لا حول له

ولا قوة ولذلك اختاره عبدالناصر نائبا له ليطمئن إليه، لكن الحقيقة ان السادات كان بالمرصاد لأية بادرة من أحد قيادات الثورة يستريب فى انها تقوم بمناورة من أجل وراثة الخلافة.

وحدث أثناء محاكمة رجال المخابرات فى المحكمة التى كان يرأسها حسين الشافعى، أن نشر مراسل «الجمهورية» ملخصا لأقوال الشهود جاء فيها ذكر اسم زكريا محيى الدين ــ وكان رئيسا للوزراء ـ وفوجئت بدعوتى لمقابلة رئيس الوزراء فى مكتبه. وكان هذا أول لقاء لى معه.. قابلنى متجهما يتساءل لماذا ذكرنا اسمه ولم نذكر أسماء آخرين. لماذا لم نذكر اسم على صبرى، لماذا التركيز عليه هو شخصيا.

وارتفع يطالبنى صوته بفصل المحرر الذى كتب هذا الكلام، وقد اعتبرت هذا الطلب تهديدا غير مباشر لى شخصيا، وخاصة انه قد أضاف ان مصلحة البلد إذا اقتضت فصل مليون موظف فهو مستعد لذلك. وضرب بيده على صدره وقال: «أنا السلطة» وما أجده فى مصلحة البلد لن أتردد فى تنفيذه. وكنت أعلم أن هذا هو منطق زكريا محيى الدين. وانه عندما يكون فى السلطة كرئيس للوزراء يطلب من عبدالناصر ان تكون لديه صلاحيات كاملة.

وكانت مشكلته مع عبدالناصر هى فى انه لا يحصل على التفويض الكامل الذى يرى بصدق انه الوسيلة الحقيقية لإصلاح ماهو فاسد ومعوج فى البلاد.

وخرجت من مكتب رئيس الوزراء دون أن أعد بفصل المحرر، واكتفيت بأن أحاول تهدئة خواطر زكريا محيى الدين بمراجعة مانشره عنه، حتى لا يشعر بأن «الجمهورية» تتحيز لإسم من بين أسماء قادة الثورة، ولقد رفضت هذا التحيز كما سبق أن أوضحت منذ اللحظة الأولى التى عرض فيها على صبرى أن أتولى رئاسة

تحريـر «الجمهوريـة» إذ قلت لـه: إنى لا أقبل أن تكون الصحيفـة لســان حال على صبرى أو زكـريا محيى الـدين، وانه قبل كـلامى باسما، وقال لى فيما بعـد أمين هويدى: انت الـوحيد فى مصر الذى كان يستطيع أن يقول هذا الكلام لعلى صبرى فى ذلك الوقت..

ولم يمض يوم على مقـابلتى لزكـريا محيى الـدين، حتى اتصل بى السادات وطلب حضـورى إلى بيته، وبـدأ جلسة طويلـة امتدت لساعـات بسؤالى: ماذا فعلت مع زكـريا محيى الـدين؟، ولم أسأله كيف عرف بالمقابلة، وكان لابـد أن أروى له بالتفصيل كل ماحدث، وانصت باهتمام. ثم قال بصراحة تامـة: إن «زكريا» يكرر منذ فترة هذا الأسلوب! وشرح لى الموقف على النحو التالى:

إن زكريـا محيى الدين يعمـل على دعم وجوده كصاحـب سلطة مطلقة. ويبث هـذا الشعور فى مجالات مختلفـة وحديثة الـذى يردد فيه «أنا السلطة» تكرر مع عصام الـدين حسونة وزير العدل، ومع أكثر من عضو بمجلس الأمة رووا مـاحدث لهم مع أنور السادات، فالمسألة أكبر من أن تكون مجرد احتجاج على ذكر اسمه فى قضية المخابرات.

كان السادات يرى الأمور من وجهة نظره بحذر وتأهب لمواجهة أخطار قـادمة من جـانب زكريا محيى الـدين، وعندمـا خرجت من بيته كنـت واثقا ان صراع السلطة الـذى يجرى فى الكواليس أخطر بكثير ممـا قد يخطـر ببال أحـد، وتأكـدت ظنونى بعـد أيام.. فقـد اتصل بى مسئـول من الــرئاســة وقـال لى: إن الأمـر فيما يتعلق بالسيد زكـريا محيى الدين أصبح منتهيا لأنــه سوف يترك منصبه كرئيس للوزراء بعد وقت قصير.

وهكـذا عرفت بأن زكـريا محيى الـدين خارج من الـوزارة قبل حـوالى اسبوعين من اعـلان استقالتـه، وعرفت فى نفس الـوقت ان

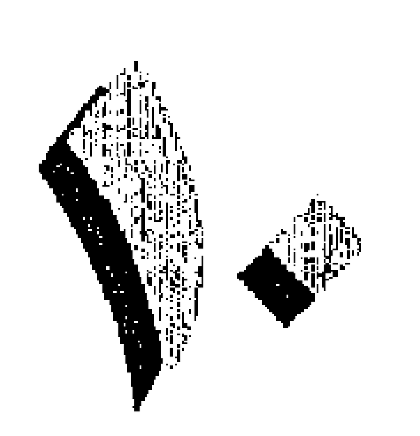
اهتماما كبيرا كان موجها إلى تحركات زكريا محيى الدين، وخوفا ـ لا أدرى أسبابه الحقيقية ـ من أن يكسب زكريا محيى الدين مواقع تعترف بسلطته سواء فى الإعلام أو الصحافة أو فى مواقع أخرى، فتمهد له الطريق ليتقدم فى الوقت المناسب لخلافة عبدالناصر المريض.

وكنت أبحث عن وسيلة لظهور كلمة الناس التى تعبر عن إرادتهم، ليكون لها تأثيرها فى هذه التيارات الخفية فى كواليس السلطة، والتى أجهلها ولا أعرف منها إلا ما يتسرب إلى نتيجة موقعى الصحفى.

وكتبت مقالا عن أهمية تفاعل القيادات من خلال الاتحاد الاشتراكى مع الجماهير لتكون مؤثرة فى سياسة البلاد. وإذا بعلى صبرى يتصل بى ـ وقد وصلته بروفة من المقال دون علمى ـ وكان يريد منع نشره. فقاومت بإصرار فسمح بنشره وهو يحذرنى من مغبة ماكتبته. فلما جاء أول اجتماع للجنة المواطنين من أجل المعركة ودخل عبدالناصر قاعة الاجتماع اتجه بنظره إلى حيث أجلس وأشار بيده فى ضيق وقال: هذا الكلام الذى تكتبونه تعالوا انتم ونفذوه.

كان ضيق الصدر بالكلام الذى يراه نظريا وسط معمعة حرب الاستنزاف ومبادرة روجرز والصراعات الخفية على السلطة. ولقد اشتدت هذه الصراعات، عندما كانت لجنة المواطنين من أجل المعركة تجتمع برئاسة حافظ بدوى، فيعقد السادات اجتماع «الباب المفتوح» فى الاتحاد الاشتراكى. ويدور الهمس حول تصادم مواعيد اجتماع اللجنة مع اجتماع الباب المفتوح. وضرورة التنسيق بين الاجتماعين.

وحدث ان قابلت شعراوى جمعة فإذا بـه يقول لى: لقد قررنا أن نعتبرك واحـدا منـا. ولم أفهم مـا الذى يقصـده، فإذا كـان الأمـر خاصـا بعضويتى فى التنظيم الطليعى فهـذا قديم، فما هـو الجديد لأصبح واحـدا منهم. ثم جاء مسـاء يـوم من خريف عـام ١٩٧٠ وجاء النبأ الصاعق أن مات عبد الناصر.



الرقابة على طريقة السادات



«« فرض مـوت الزعيم على الأمـة موقفا مثـاليا ، فالجميع يتشبثون أمام الموت بذكرى عبدالناصر، مآثره وإنجازاته تحيط بها وتـرعاها الآمال الكبار التي أودعها الزعيم القلوب والعقول. »»

كـان التفاف الشعـب واحتشاده فى جنـازة عبـدالنـاصر موقفـا مثاليـا ونادرا لاحتشـاد الشعب حول آمال بـاقية يـريد أن يحافظ عليها، ويضمن لها الاستمرار، فهى التركة وهى الـوصية، ومراجعة أعمال البشر تكون بالكشف عن المزايـا والصفات التى ارتفعوا بها، ولاتكون أبدا بالكشف عن النواقص للوقوف عندها والتركيز عليها، لأننا جميعا كبشر لنـا أخطاء، ومقياس النجاح بـالذروة التى يصل إليها العمل الناجح، وذروة عبدالنـاصر كانت فى الحلم العربى الذى أيقظ به الجماهير. وذورة عبـدالناصر كانت فى إرادة التحـرير التى أصبحت نموذجا لدول وشعوب انتفضت وثارت وتحررت بها.

ولقد كـان شوبنهور الفيلسوف الألمانى يسخـر من نقاد الأدب الذيـن يفتشون عن النـواقص والعيوب، ويتسـاءل إذا كان يـوجد عمل أدبى واحـد بلا عيـوب، فالمهم عنـده هو الكشف عن نـواحى العبقـريـــة والجمال التى وصل إليهـا العمـل، وهى التى تحدد مستواه، وهذا أيضا هو مايصلح لمراجعـة حساباتنا مع زعيم مات، لأنه يبقى بإنجازاته ونجاحـاته، أما النواقص والأخطاء فتتحول إلى دروس ـ لا لتقييم الزعيم ـ لكـن لمواجهة الحاضر الذى نعيش فيه، لـذلك كـانت الأيـام التى أعقبت تشييع جثمان عبـدالناصر، أيـامـا

مثالية، والمناخ السياسى السائد هو مناخ المثاليات، بمعنى الشعور السائد بأن واجبنا المقدس هو أن نواصل السير فى طريق عبدالناصر الذى تحول إلى رمز، بل ربما تحول إلى أسطورة.

وفى هذا المناخ كان أنور السادات يقسم أمام مجلس الأمة ليتولى الرئاسة، ثم ينحنى أمام تمثال عبدالناصر فى مشهد تمثيلى من مشاهد مسرحية تاريخية، ولقد استراب فيه كثيرون لما فيه من مبالغة ومظهرية، لكن بقى المعنى الكبير، إن الرئيس الجديد سوف يواصل السير فى طريق الزعيم الخالد. وكان لهذا معناه المباشر بالنسبة لقضية الرقابة وحرية الصحافة، فمادام السادات ينحنى للتمثال، فهو من باب أولى سوف ينحنى للاتحاد الاشتراكى، وتنظيمه الطليعى، وهذا يعنى ان صوت التنظيم سوف يرتفع وسوف يكتب أعضاؤه آراءهم بحرية، وسوف يدور حوار سياسى مفتوح، وخاصة أن السادات كان يعقد جلسات باسم «الباب المفتوح» تدعو المواطنين للتعبير عن آرائهم وأفكارهم بحرية كاملة.

ولقد استطاع السادات أن يؤكد حرصه على سلامة الإجراءات الدستورية التى تؤدى إلى توليه السلطة الشرعية، واعتمد على التنظيم الطليعى ليقود مظاهرات التأييد له، فاتجهت الوفود التى تمثل الاتحاد الاشتراكى والنقابات العمالية والفلاحين والنقابات المهنية إلى قصر الطاهرة تحمل أعلامها، ويستقبلها السادات ويرحب بها كما ترحب به، وعندما ذهب وفد نقابة الصحفيين إلى قصر الطاهرة، تقدم أحد رجال حاشية السادات، وطلب من كامل زهيرى النقيب، وطلب منى أن نجلس بجوار السادات عندما يدخل القاعة على نفس الأريكة المعدة ليجلس عليها، كان قد أعد مسبقا الصورة التى يراه بها الناس سواء فى مشاهد التليفزيون الاخبارية أو فى صور الصحف والمجلات، كان حريصا على أن يراه الناس

والحشـود تحيط بـه، ولا يجلس وحده، بل يجلس مـن حولـه على يمينه ويساره أبناء الشعب الذين جاءوا يؤيدونه ويبايعونه.

وشعـر أعضاء التنظيم ان السـادات رجل ديمقـراطى، وتفتحت شهيـة كثيرين للعمل السياسـى من خلال الاتحادالاشتراكى الـذى بدا فى أيامـه الأولى وكأنه يسيطر على الشارع وله كلمتـه النافذة فى تـولى السـادات الحكم، وكـان أول مـايشغل الكثيرين من أعضـاء التنظيم هـو احتكار الأهـرام ومحمـد حسنين هيكل للرأى والمقـال السياسـى فضلا عن انفـراده بأخبار عبـدالناصر، لذلـك كان أول امتحان لحريـة الصحافـة، هو فى معـارضة مـوقف هيكل المعلن فى الأهـرام، عن ضرورة تحييـد أمريكـا فى الصراع العـربى الإسرائيلى، والمخاوف التى يثيرهـا حول نشـوب حرب تحاول فيها عبـور قناة السـويس التى كـانت من وجهـة نظـره التى شرحهـا فى مقـالاتـه بالأهـرام، مانعا مـائيا من شبه المستحيل عبـوره، وتصدت لهيكل ولأفكـاره والموضوعـات المطروحـة فى الأهـرام مجموعـة كبيرة من رجـال التنظيم الطليعى طلبوا منى نشر مقـالاتهم فى الجمهوريـة.. وكـان فى مقـدمتهم الـدكتـور لبيب شقير رئيس مجلـس الأمـة، والـدكتـور فـوزى منصـور، والـدكتـور إبـراهيم سعـد الـدين، وعبدالهادى ناصف، وصبرى مبدى.

وأحـدثت مقـالاتهم رواجـا سيـاسيـا، ورواجـا فى تـوزيع «الجمهـورية»، وظهـرت على السطح التيـارات المتباينـة فى التنظيم الطليعى، ولم يتـدخل رقيب يفـرض مـوقفـا محددا، أو يطلب منع نشر مقال، وبـدا للقراء أن الهجـوم على محمد حسنين هيكل كـاتب عبدالناصر الأول أمر مثير للدهشة، ولـه دلالته على أن مناخا جديدا يسـود البـلاد، وكـان أعضـاء التنظيم يفسرون هـذا المنـاخ بأن عبدالنـاصر الزعيم قـد مات، وأصبح من المنطقى أن يتـولى التنظيم

التوجيه السياسى من خلال قنوات الاتحاد الاشتراكى واللجنة المركزية، وقد انتهى العهد الذى كانت فيه الجماهير تعتمد على الزعيم، وتنتظر منه أن يقدم لها القرار ويوجهها إلى الأهداف، الآن لا يوجد هذا الزعيم، وعلى التنظيم السياسى أن يتولى بنفسه المهام المطلوبة للحكم، وكان الحديث عن السادات ينتهى إلى أنه لن يتدخل، لأن مؤسسة الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى أقوى منه وهى التى جاءت به إلى الحكم.

وكانت عيون كثيرة ترصد الموقف السياسى من خلال مايحدث فى الصحافة، ومقالات «الجمهورية» بالذات التى هاجمت آراء هيكل السياسية.

وأذكر أن دعانى السفير البريطانى إلى غداء فى السفارة مع وفد من أعضاء مجلس العموم فى زيارة للقاهرة.. وأثناء الغداء انهالت علىّ الأسئلة حول ما تعنيه المقالات التى تهاجم هيكل، وهل نستطيع أن نحارب إسرائيل، كان واضحا انهم مشغولون بتقييم الموقف، وكان صديقى ديزموند ستيوارت الكاتب والروائى يسألنى نفس السؤال، هل يحارب السادات أم انه لن يحارب، وكان يقول: إن الشائع بين المصريين الذين يقابلهم ان السادات لن يخوض الحرب، ثم يسألنى عن رأيى وقد عرفته شخصيا، فأقول له: إنى لاأتصور ان السادات ضعيف كما يتوهم كثيرون، وها هو السؤال يتردد بإلحاح من أعضاء مجلس العموم، وفجأة سألنى أحدهم:

هل صحيفتك تأثرت بموت عبدالناصر؟!

كان سؤالا ماكرا..

— وأجبت على الفور:

— تأثرت بكل تأكيد.

فقال:

— أعرف أنها جريدة عبدالناصر.. هل انخفض توزيعها؟

أجبت :

— بالعكس .. زاد التوزيع زيادة كبيرة.

وتحدثت عن رؤيتي للموقف ومشاعر الناس، إنها استلمت الزمام، وأصبحت تعتمد على نفسها وتفكر لنفسها، ولم تعد تعتمد على الزعيم فقد مات.

واستمعوا إلى ما قلته بين دهشة وعدم تصديق وإحساس بسذاجتى أدركته عندما سألنى الرجل متخابثا:

— معنى هذا انك سعيد بموت عبدالناصر.

فأجبت فى عناد:

— سعيد لأننا نشعر ونحن نعمل بحرية كاملة انه مازال موجودا بيننا.

وتحدثت عن رغبة عبدالناصر فى فتح حوار ديمقراطى لإعادة صياغة الميثاق الوطنى، ومقالات على صبرى باقتراحاته حول إعادة تشكيل اللجنة المركزية.

كان المناخ المثالى المتفائل هو رد الفعل لموت عبدالناصر.. مات الزعيم تحيا الجمهورية العربية المتحدة.. وتشجبت أمانة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى، فتحركت لتمارس دورها، فكان اجتماع لرؤساء مجالس إدارات الصحف دعا إليه ضياء الدين داود، ووصلت متأخرا فوجدت هيكل يجلس بالقرب من الباب عند طرف المائدة الطويلة التى يجلس فى طرفها الآخر ضياء الدين داود، وجلست بجوار هيكل، وهمس وملامح وجهه تفيض بالسخرية: هل صحيح أن ميزانية الإعلانات تصل إلى خمسة وعشرين مليون جنيه، ماهو الرقم عندك فى الإعلانات المصرية، قلت

له: «مليون ونصف المليون»، فقال بضيق: إنهم يرددون كلاما غير صحيح، ويذكرون أرقاما لا صلة لها بالواقع.

وفى اجتماع آخر، قال لى وهو خارج كلمات قاسية عن ذلك الذى يحدث فى هذه الاجتماعات، كان واضحا انه يعترض على ما يقال ويرى انه كلام لا صلة له بالصحافة أو الإعلام أو السياسة، ونقل لى الإحساس بأن الصراع قائم ويوشك أن يكشر عن أنيابه، لكنه لم يصل بعد إلى المكاشفة التى تجعل هيكل يقاطع هذه الاجتماعات، وكان حضوره ومشاركته فى اجتماعات الاتحاد الاشتراكى تعنى ان الظروف قد تغيرت، فلم تعد القرارات تصدر من الرئاسة ويعرف بها هيكل قبل غيره، بل أصبحت هناك مناقشات فى اجتماعات الاتحاد الاشتراكى. والسادات لا يتدخل ليفرض رأيا.

وفى نهاية ابريل ١٩٧١ تقرر أن يسافر وفد من الاتحاد الاشتراكى إلى الاتحاد السوفيتى ليجرى لقاءات سياسية فى موسكو، وكنت عضوا فى الوفد، وجاءنى موسى صبرى يزورنى، وكان السادات قد أعاده إلى «أخبار اليوم»، وسألنى إذا كنت مسافرا إلى موسكو، فأجبت نعم.. فقال لى بصوت عاطفى: - أرجوك - قبل أن تسافر أطلب مقابلة السادات..

سألته : لماذا ؟!

• قال:

— الرجل وحده .. يحتاج إلى أن تكون معه.

كانت دعوة لأن أنحاز إلى معركة، لا أرى أبعادها، ولاصلة لها بمبادىء عبدالناصر، وقد تورطنى فى صراعات بين أشخاص، وليس بين مبادىء، وكان التورط مع الشخص قد انتهى فى يقينى بموت الزعيم، ولا معنى لأن تتحول تجارب الثورة إلى تجارب ولاء للأشخاص، وهكذا لم أذهب إلى السادات، ولكنه كان يريد منى

شيئـا.. فقبل سفـرى بيـوم اتصل بى سـامى شرف وقـال لى: ان السـادات يطلب منى إيقاف نشر مقـالات أعضاء التنظيم، ومقـالات لبيب شقير وعبـدالهادى نـاصف، وصبرى مبـدى، ولا أنشر شيئـا يكتبه على صبرى.

فجأة وبـلا مقدمـات ظهـرت الـرقابـة صـارمة حـاسمـة، مع تحذيرات لا لبس فيها من سـامى شرف ألا أخبر أحدا بأن الرئيس طلب منع النشر، سألتـه، كيف، وأنا مسـافـر؟ وهكذا أبلغ ممـدوح رضا مـدير تحريـر العدد الاسبوعى «للجمهـورية»، وسـافرت مع وفد يضم الكُتاب المغضوب عليهم من السادات.

وفى ليلـة السفر اجتمعنـا فى فندق بـالقـاهرة، لنبحث تفـاصيل السفـر فى الصباح، وكـان ضياء الـدين داود يتحدث عنـدما تقـدم الجرسون يحمل صينية القهوة، فتوقف عن الكلام، وما كاد الرجل يبتعد حتى همس.

— كل هؤلاء من المخابرات.. وكل كلمة تقال أمامهم ينقلونها.

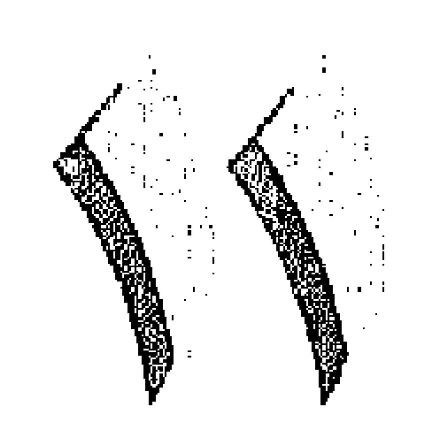
وانتقلنا إلى مـائدة عشاء، وجلس إلى جـوارى مستشار صحفى بالسفارةالسوفيتية.. وسألنى هامسا:

— ماهو موقف على صبرى؟!..

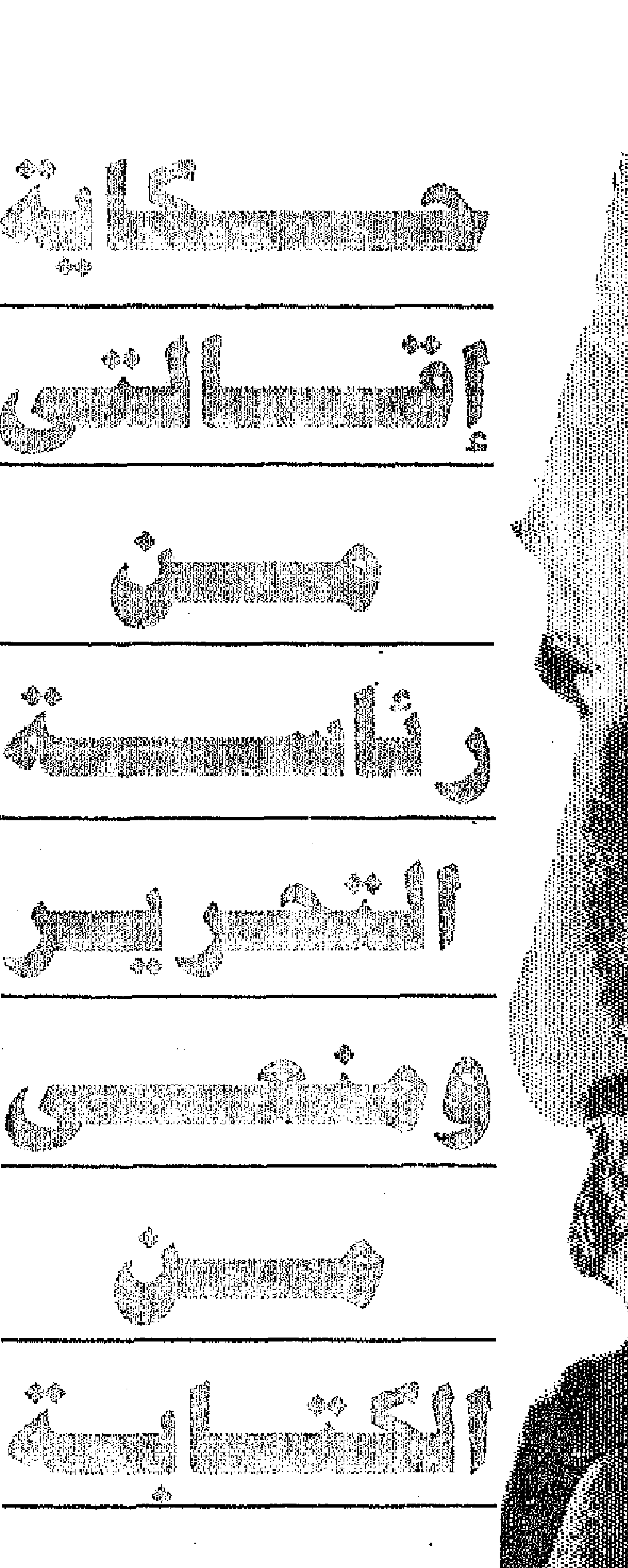
قلت له فى دهشة:

— ماذا تعنى ؟!

فلزم الصمت ولم يكمل ..



حكاية إقالتى من رئاسة التحرير ومنعى من الكتابة



"وصل وفد الاتحاد الاشتراكى إلى موسكو وهى تستعد لاحتفالات عيد العمال فى أول مايو ١٩٧١، وكنت قد تركت القاهرة والجو شديد الحرارة، وفوجئت عند هبوطى من الطائرة فى موسكو بدرجة الحرارة ثلاث تحت الصفر. وساعدنى عبدالملك خليل مراسل «الأهرام» فى موسكو على شراء معطف فى الحال لينقذنى من هلاك محقق من البرد القارس."

ومنذ البداية كان واضحا أن البرودة السياسية أشد من برودة الجو، ولن تسعف المعاطف فى التغلب عليها، وكان السفير المصرى مراد غالب يعقد المآدب واللقاءات، لكن المسئولين الكبار مشغولون باحتفالات أول مايو أو بأمور أخرى.

ووقفنا على الرصيف فى الميدان الأحمر بجوار المنصة الرئيسية فوق قبر لينين، نشاهد استعراض الجيش الأحمر، وفوق المنصة يقف بريجنيف والماريشال زوجوف الذى استولى على برلين فى الحرب العالمية الثانية. وطال الوقوف والبرد القارس لا يرحم فأشفقوا علىّ وعادوا بى إلى حجرتى فى فندق «راسيا» الذى يطل على الميدان.

وكنت أتصور انى أستطيع مشاهدة العرض العسكرى من نافذة حجرتى. لكنى وجدت رجلين داخل الحجرة يجلسان على مقعدين ويحرسان النافذة. صامتين جامدين، وجلست على السرير

فى انتظار الفرج. فالحراسة مشددة على كل موقع يطل على منصة العرض على امتداد عدة كيلو مترات، حتى لا تتكرر تجربة اغتيال الرئيس الأمريكى كيندى ببندقية بعيدة المدى .

كانت المجاملات كثيرة والأحاديث عادية، لكن بين وقت وآخر أسمع سؤالا يكشف للحظة خاطفة التوتر الذى تغلفه المجاملات. السادات يتحدث عن الإرهاب الفكرى بين عمال حلوان. ما الذى يقصده بالإرهاب الفكرى؟.. هل حضرت اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى الذى عارض مشروع السادات لإقامة وحدة مع ليبيا. ما الذى يعنيه هجوم صحيفة «الجمهورية» على مقالات هيكل فى «الأهرام»؟.

وجاء صباح يوم وكنت على موعد مع هيئة التحرير بصحيفة البرافدا، وكان الحديث حول وسائل التعاون فى الطباعة والورق وتبادل الأخبار. كلام روتينى لا يتناول السياسة، حتى انتهى الاجتماع وأثناء هبوطى الدرج الرخامى الكبير فى طريقى إلى الخروج، رأيت رئيس قسم الشرق الأوسط يقفز الدرج ليصل إلىّ وفى يده برقية.. «صدر قرار بعزل على صبرى من «الاتحاد الاشتراكى» وأسئلة: هل تعرف شيئا عن هذا الموضوع، ما الذى يحدث؟ أجبت: لاأدرى. وانسحب الرجل وهو ينظر إلىّ فى ارتياب. كيف لا أدرى؟. وزادت المجاملات فى رحلات إلى طشقند وجورجيا ومآدب وزيارة للأكاديمية العسكرية «فرونز» وأحاديث عادية، إلى أن حان موعد السفر إلى القاهرة.

وجاء مراد غالب يقول إننا مدعوون إلى لقاء أحد أعضاء المكتب السياسى فى الحزب الشيوعى السوفيتى اسمه «ايلونوفسكى» رجل بدين له عينان حالمتان فى وجه مستدير صوته هادئ يتحدث ببطء عن كفاح الشعب السوفيتى والعشرين مليونا الذين

ماتـوا فى الحرب العالمية الثـانية. والكفاح المتـواصل عاما بعـد عام وإرادة الصمـود وعدم التخـاذل رغم المصاعب ورغم القحط الـذى استمـر سنــوات فى محصــول القمــح، ومع ذلك لم يتردد الشعب السوفيتى فى إرسال شحنات القمح التى كـان فى أشد الحاجة إليها تلبية لطلب عبدالناصر.

ومضـى الـرجل بنفـس الصــوت الهادىء ودون تغيير فى إيقـاع كلماتـه يقول لنــا ببســاطة: إن الاتحاد الســوفيتى لن يستطيع أن يقدم لمصر السلاح ولن يستطيع أن يواصل إرسال القمح إلى مصر. وإن علينــا أن نعتمد عى أنفسنـا. أن نكافح وأن نصمـد، ثم نبحث الأمر مع الولايات المتحدة!!

كانـت الكلمات أشد برودة مـن العاصفـة الثلجية القادمـة من سيبريا. كل شــىء يتغير وكل شىء لم يتضح بعد. الســادات الذى حـدثنى كثيرا عن الديمقـراطية يغضب لمعـارضة اللجنـة المركزيـة لمشروع الوحدة. ويتحدث عن الإرهــاب الفكرى وسط عمال حلوان، مما يعـود بذاكـرتى إلى أيام «صــاو صاو» يقـود العمال فى مارس ١٩٥٤ لتموت تجربة الديمقراطية فى المهد.

الكتاب ممنوع من الكتــابة. والتنظيم الطليعى لا يجتمع ولا أحد يتولى مسئـولية جمع أعضــاء التنظيم لمناقشــة ما يحدث. والهمس يـدور،فغيـاب اللقــاء التنظيمى تـرك المجال للمنــاورات الفـرديـة، وفقدان الثقـة، وكان لابد أن تمضى أيـام بعد يوم ١٥ مايـو «ثورة التصحيح» لأرى صـــورة انعـدام الثقـــة والحيرة والبلبلـــة داخل التنظيم، كما قـــرأتها فى نص تسجيل لمكـالمة تليفــونيـة نشرهـــا «الأهرام» بعـد إلقاء القبض على مــايسمى بمــراكز القوى. وكــانت المكــالمة بين على صبرى ومحمد فــائق وزيـر الإعلام، وكــان الأول يشكو من تجاهل الصحافة لقضية الــوحدة مع ليبيا والورطة التى

يريـد السادات أن يدفع مصر إليهـا. وقال محمد فـائق ـ كما نشر «الأهـرام» ـــ انه سـوف يتصل بى لأكتب فى الموضـوع، فـرد على صبرى: إنى آخر من يعلم بما يحدث.

وعجبت لهذا الأسلوب فى التعامل مع الكتابـة والكتاب، فالقضية بهذا المفهـوم ليست فى الأفكار ولا فى المنـاقشـة والحوار، بل فى أن تعتمد على الكـاتب الذى «يعلم» بـالعلاقات الشخصيـة، ومَن ضد مَن، ومَن مع مَن، إنـه الوجـه الآخـر للسادات الـذى طلب منع على صبرى من الكتابـة دون أن يقال لـه أو لأى أحد آخـر إن السادات هو الذى أمر بمنع النشر!

لكن هذه الـرؤية، كانت غير واضحـة ، وأنا مازلت فى مـوسكو، كـان الأمر الـواضح، أن الصراع يشتد بين الســادات وعلى صبرى، وان السادات الـذى أسرع,إلى مقعد الـرئاسة فى اللجنـة السياسيـة ليسبق على صبرى الذى حصل على أكبر الأصـوات، يعاود الظهور بينما السادات يجلس على مقعـد رئيس الجمهوريـة. وسيكون على طـالبى المنـاصب والنفـوذ الاختيـار بين اسم الســادات واسـم على صبرى.

وكان الراجح لدى الســوفيت ولدى أى إنسان يرقب الموقف، ان الســادات سـوف يكسب هذه المعـركـة الصغيرة، أو التى وصفهـا هيكل فيما بعـــد، قـائلا: إن الســـادات كـــان يستطيع أن «يهشم بعصاته الصغيرة». أو كما كنت أقول لنفسى وأنـا أقرأ ما قاله على صبرى إنى آخر من يعلم.. إنى فى حقيقـة الأمر كنت أول من يعلم، وكنت أراه بوضوح صراعا على منـاصب ونفوذ ولا أرى فيه صراعا حقيقيا تقتنع به الجماهير وتؤيده.

كـان الفراغ الفكـرى قد اكتمل والاختيـار بين فلان وفـلان، ولا أرى أملا ولا أرى صدقـا فى هذا أو ذاك، وكان الذى يـدهشنى حقا

أن رجـالا أحترمهم وأثق فى قدراتهم وكفـاءتهم، مثل أمين هويـدى ومحمـد فائق جـرفتهم الأحـداث، ولم تتح لى فرصـة حتى الآن أن أعرف ما كان فى أعماقهم، وإن شعرت أن طباعهم أقرب إلى طباعى فى العزوف عن المظاهر واستمالة الجماهير بـالوسائل الديماجوجية وعلى أيـة حـال انقطعت الصلـة بينهم وبين الجماهير ولم تتـأثـر بعـزلهم، أمـا غيرهم ممن حاولـوا الأسـاليب الـديماجوجيـة فقـد اكتسحهم السادات بسهولة ويسر فقد كان أبرع منهم.

وكـان لابـد أن يطبق السادات استراتيجيـة الأمن فـوق الـرأى، ولقد أعـد لذلك من قبل يوم ١٥ مـايو. وكنت شاهـدا على ذلك فقد وصلت الطائرة إلى القاهـرة تحملنا من موسكو ظهر يـوم ١٣ مايو ١٩٧١ وإذا بـاحتفـال كبير يقيمـه القسم الـريـاضـى لجريـدة الجمهوريـة فى نفس اليوم وليس لـدىّ أدنى فكرة عنـه. وذهبت إلى الاحتفال المقـام فى قاعة كبيرة بجـوار مكتبى. وحضر جميع رؤساء الأنـدية الـرياضيـة. وكل من له صلـة بغالم الـرياضـة، وقد أعـد ناصف سليم بـرقيات تأييد إلى الرئيس الســادات باسم الحضور، فيما يعنى أن صراعا يدور فى مصر. وهناك مـن يؤيد ومن يعارض. وصحيفة «الجمهـورية» تـؤيد وجميع رؤسـاء الأنديـة الريـاضية يؤيدون ويبايعون.

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى مبنـى التليفزيون لأزور محمد فـائق، وقابلت فى مكتب منير حـافظ، الـذى أصبح وكيلا للـوزارة، الدكتور حسن الـزيات وكان مندوبـا لمصر فى الأمم المتحدة، قال لى انه يسافر غدا إلى نيويورك.

وسـألنى : مـاذا فعلتم فى موسكـو؟. وما كـاد يسمع أن الاتحاد السـوفيتى لن يمدنـا بالسـلاح والقمح حتى قال بلهجـة حاسمـة لاتخلو من أسى. وهو واقف معى وسط الحجرة:

— لو صح هذا .. فالبلد سوف يحكمها المشايخ!!

وأسجل هذه الكلمة على مسئوليتي. ولها دلالتها. وإن كنت لاأعرف مدى علمه بخطة السادات التى طبقها بعد ذلك. عندما استخدم الدين فى السياسة لضرب كل ما له علاقة بما وصفه بمراكز القوى أول الأمر، ثم بكل ماله صلة بنظام الحكم فى عهد عبدالناصر. لكنه فى بداية الأمر أطلق سحابة من الديمقراطية لتغطية ما وصفه الزيات بحكم المشايخ، عندما تحالف مع جماعات من الشيوعيين، واختار منهم وزراء وأعضاء فى اللجنة المركزية.

واستدعانى وزير الإعلام الجديد الدكتور عبدالقادر حاتم. وقال لى بلهجة رقيقة: إنه يأسف للظروف السياسية التى تقتضى أن أترك رئاسة مجلس إدارة «الجمهورية» ورئاسة تحريرها، وجاء الصديق مصطفى بهجت بدوى يزورنى فى نفس اليوم فى بيتى، وقال: إن كل شىء سيكون على مايرام وإنى أستطيع أن أكتب. وأرسلت مقالا إلى الصحيفة التى كنت رئيسا لتحريرها منذ أيام. وبعد يوم، جاءنى فى الليل بعض العمال ومعهم بروفة المقال، ومازلت أحتفظ بها. وقالوا لى:

— عرفنا أنهم أخبروك أن العمال رفضوا جمع المقال، وهذا كذب. هاهو ذا المقال تم جمعه وتصحيحه. لكنهم يمنعون النشر ولايريدون الاعتراف بذلك.

ابتسمت . كنت أعلم أن هذه هى الرقابة على طريقة السادات.





ضحايا الإعلام فى عهد السادات

«« استطاع السادات أن يشيع مناخ الحرية بإعلام مكثف، ومن خلال سيناريو به مشاهد مثيرة، كمشهد حرق شرائط التسجيل التى تحتفظ بها أجهزة الأمن فى عمليات تصنت غير مشروع. »»

ومشهد ضرب جدار بسجن طرة إعلانا لتحطيم أسوار المعتقلات وهدم السجون، وجميع المصريين «أولادى» لهم كل الحرية بلا قيد أو شرط والصحافة تكتب ما تشاء، يعود إليها مصطفى أمين الذى دخل السجن ظلم وعلى أمين الذى كان منفيا فى الخارج، وكل الكتاب المحرومين من الكتابة فى عهد عبدالناصر مدعوون للكتابة سواء كانوا من الإخوان أو الماركسيين، ورغم ذلك كنت ممنوعا من الكتابة.

وجاء موسى صبرى يقول لى: إن هناك اقتراحا بنقلى من دار التحرير إلى روزاليوسف، ونقل كامل زهيرى من روزاليوسف إلى دار التحرير. قلت له ضاحكا: هذا أشبه بعملية تبادل أسرى! وصحبنى موسى إلى سيد مرعى فى الاتحاد الاشتراكى لإعداد القرار بالنقل، وكان عبدالرحمن الشرقاوى قد تولى رئاسة مجلس إدارة روزاليوسف ويرأس تحريرها وهو مثل موسى صديق حميم وقديم، ويذكر وقفتى معه عندما صدرت الأوامر بمنعه من الكتابة ورفضت الرقابة طبع ونشر روايته الفلاح ومسرحيتيه الحسين ثائرا والحسين شهيدا. فقد تحديت المنع والرقابة ونشرت الرواية والمسرحيتين فى «الجمهورية»، وطلبت منه أن يكتب يوميات

أسبوعية، وكان يريد أن يرد «الجميل» وأن يقف إلى جانبى كما وقفت إلى جانبه، ولكن ثبت أن ما يستطيع كاتب أن يفعله على مسئوليته، فى عهد عبدالناصر لا يستطيع أن يفعله أحد على مسئوليته فى عهد السادات.

اتصل بى عبدالرحمن الشرقاوى يرجونى ان نلتقى فى فندق «شبرد»، وقال لى ونحن نحتسى القهوة انه يرى ألا أذهب إلى روزاليوسف لفترة قد تطول، ولكنه يحتاج إلى بعض الوقت لإزالة عقبات تحول دون السماح لى بدخول المبنى أو تحول ــ طبعا ـ دون الكتابة. كان السادات يريد تغيير الصورة فى الإعلام، وفى جميع مجالات الحياة فى مصر. كل ما له صلة بعهد عبدالناصر إن كان خيرا أو شرا لابد من «تغييره، وكانت هذه هى فرصتى الحقيقية لأتفرغ لكتابة رواية «زينب والعرش» ومن بعدها «حكاية تو»، وفى نفس الوقت عدت إلى مقاهى الشطرنج وتعرفت بأبطال اللعبة من الشبان، وبين كتابة الرواية ولعب الشطرنج قضيت أياما خصبة من أفضل أيامى.

وكنت أتابع من بعيد مايجرى فى عالم الصحافة والإعلام من خلال صديقى جمال العطيفى، وهى صداقة تعود إلى سنوات المراهقة، وكان يذاكر معى ليكون الأول وأقنع بأن أكون الأخير، إذ كان يحرص على أن يناقش معى محاضرات الأساتذة فى كلية الحقوق ويعجب لعدم تركيزى فى دراسة القانون واهتمامى بالأدب، وكان جمال يريد أن يكون وزيرا ويرى أنه أحق من غيره بالوزارة لأنه متفوق فى دراسة القانون، ولأنه يؤمن انه أفضل من غيره من الذين تولوا الوزارة وكنت أتابع خلال تعليقاته وملاحظاته ما يجرى فى كواليس مسرح السلطة، وعلاقاته مع المشتغلين بالسياسة، وكان يتكلم عن اقتناع عن قدرته على صياغة

قوانين تحترم مبادىء الحرية والديمقراطية، وفى نفس الوقت تحقق للحاكم ــ السادات ــ القدرة على أن يكون الأمن والسلام الاجتماعى تحت السيطرة، واستطاع أن يقنع السادات الذى كلفه بصياغة القوانين التى تنظم الاعتقال بما يعطى مظهرا ديمقراطيا لا يتنافى مع الدعوة للحرية والخلاص من عهد المعتقلات والسجون والمصادرات.

وكانت الفرصة بعد حرب أكتوبر قد سنحت لعبدالرحمن الشرقاوى أن يطلب الاستعانة بى فى روزاليوسف وكان يريد أول الأمر أن يستعين بصلاح حافظ لولا اعتراضات ثارت بزعم انه شيوعى، وحدثنى عبدالرحمن بعد أن طلب منى موسى صبرى أن ألتقى به وأساعده، وقلت لعبدالرحمن إنى على استعداد لأن أقبل رئاسة تحرير روزاليوسف بشرط ألا أكتب فى السياسة لأنى لاأستطيع أن أدافع عن مظاهر لا علاقة لها ببواطن الأمور، وقبل عبدالرحمن وقال: إن الأمور سوف تتحسن، وقد كسب السادات حرب أكتوبر، وسوف اقتنع بأن كل شىء يتجه فى الطريق الصحيح. حرية التعبير وحرية الرأى، وكنت لاأشك فى صدق مشاعر عبدالرحمن، فهو لا يساوم فى كل مايتعلق بحرية الانسان ويثور لأية إهانة تلحق بنفس بشرية، وهو الذى صك فى حياتنا الثقافية تعبير «شرف الكلمة».

وصدر قرار تعيينى رئيس تحرير روزاليوسف فى ديسمبر ولكنى أجلت وضع اسمى على المجلة، وقررت أن أعمل مع صلاح حافظ وفتحى خليل لتطوير المجلة. وبعد خمسة أشهر قال لى عبدالرحمن: إن السادات وافق على أن يشترك صلاح حافظ معى فى رئاسة التحرير، وقال: ان مشكلة الافتتاحية السياسية والمقال السياسى قد وصلت إلى حل سعيد لأن قلم صلاح حافظ سوف

يصول ويجول برشاقته وبراعتـه وصرامته، ودخلنا عهدا بدا وكأن أفكار جمال العطيفى عن الحريـة أو «الليبرالية».. فى عهـد السادات على قدر كبير مـن الصحة. حتى وجـد جمال نفسه خـارج الوزارة والسادات يقول لـه: «انت خدعتنى» لأنه ـ السـادات ـ اكتشف أن القـوانين التى صاغهـا جمال تقيد السلطـة بفترات محددة لا يجوز أن يستمر الاعتقال بعدها، وتضع شروطـا للرجوع إلى القضاء وهو يريد اعتقـالا غير محدد المدة، ولايريد أن يترك الأمر فى يـد القضاء. يـريد قـوانين أخـرى غير تلك التى خدعـه بها جمال العطيفى، ولم يندم جمال على تـرك الوزارة التى كـان يسعى إليهـا بكل طاقـاته، لأنه لم يفكر قط فى أن يتخلى عن المبادىء القانونية الصحيحة، فهو قبل كل شىء الحريص على النجـاح بامتيـاز فى امتحـان القانـون، حتى لو سقط فى امتحان السياسة.

وجـاء امتحـان روزاليـوسف أمـام السـادات مع القـوانين الاقتصـادية فى ينـاير ١٩٧٧ والانتفـاضـة الشعبية التى وصفهـا السادات بأنها انتفـاضـة الحرامية، وكـانت روزاليوسف قـد أعدت تغطية كـاملة لـلأحداث، أشرف على كتـابتها صلاح حـافظ، وكنت معـه فى مكتب عبدالـرحمن الشرقـاوى عندمـا دق جرس التليفـون فـرفع السماعـة وتكلم بلهجـة فيهـا اهتمام. فلما وضع السماعة التفت إلينا. صلاح وأنا وقال:

— هذا نائب الـرئيس «حسنى مبارك» يقول: إن الرئيـس يريد عدم إثارة موضوع الانتفاضة.

قال صلاح :

— كتبنا أن الحكومة أشعلت حريق الأسعار فأطفأه السادات.

وفكرنا لحظة .. واستقر رأينا على أن ما كتبته روزاليوسف ليس فيه ما يثير أو يدعو إلى فتنة.

لكن السـادات غضب، ولم يقبل مـا كتبنـاه ومـا تـرجمنـاه عن

مراسلى صحف أجنبية تابعوا الأحداث، وطلب عبدالرحمن الشرقاوى الذى ذهب للقائه فى القناطر.

يقول عبدالرحمن: إن السادات استقبله جالسا تحت شجرة وفى يده عصا، وقال له السادات:

— الشيوعيون ضحكوا عليك.

وطلب منه السادات أن يختار منصبا آخر ، فاختار المجلس الأعلى للفنون والآداب وتقرر عزلنا «صلاح وأنا» من رئاسة تحرير روزاليوسف، وجاء مرسى الشافعى رئيسا للتحرير، وبعد أسابيع أعلن مرسى فى اجتماع عام بالمجلة أن الرئيس السادات مرتاح إلى موقف روزاليوسف، ويقول إنه لم يعد يقرأها!فكان هذا أغرب ماسمعته فى تقييم صحيفة بأنها أصبحت جيدة لأنها لاتستحق القراءة.

كان السادات يطبق بطريقته الخاصة، نفس القاعدة التى بدأت بها الثورة وهى أن الأسبقية لاستراتيجية الأمن، ومن أجل الأمن يجوز إغلاق الصحف أو خنق أصواتها ويجوز تقييد حرية الرأى، كل الوسائل — مشروعة أو غير مشروعة — تجوز من أجل أمن النظام.

وجاء فى آخر عهد السادات منصور حسن وزيرا للإعلام، وعندما قابلته شعرت باحترام كبير نحوه، وحدث أن زار روزاليوسف لأمر ما، فدارت مناقشة حول الرقابة وحرية الرأى.. وذكرته بالندوات التى كان يجريها جمال العطيفى فى التليفزيون ولماذا لا تتكرر.

فقال بصراحة:

— لن أتورط فى هذا الكمين.

وقال : إن اليساريين كانوا يبتلعون أصحاب الرأى الآخر فى

المناقشة، وعندما يجد أن الحوار متكافىء ووجهات النظر معروضة بندية سوف يختلف الأمر ويقبل إذاعة مثل هذه الندوات.

لكن منصور حسن واجه أزمة حادة عندما قرر السادات إخراج عشرات الصحفيين من أعمالهم الصحفية وشرع فى اعتقال من يشاء من جميع الاتجاهات يمينا أو يسارا، وذهب إلى منصور حسن من يطلب استثناء بعض الصحفيين من قرارات العزل أو الإبعاد. فقال:

— لا أطلب الاستثناء .. لأن هذا الطلب يعنى انى موافق على عزل الآخرين.

وترك منصور حسن منصبه معلنا لمن يريد أن يفهم ان استراتيجية الأمن — فوق حرية الرأى واحترام الرأى الآخر - لم تعد قادرة على أداء وظيفتها، لم تعد قادرة على تحقيق الأمن وبعد شهر كان حادث المنصة واغتيال السادات.



أسئلة الثلاثين عاما !

وو تتلخص تجربتى ككاتب فى عهدى عبدالناصر والسادات فى أن السلطة السياسية كانت تتعامل مع حرية التعبير باستراتيجية محددة، وهى أن الأمن أهم من الثقافة، وحماية النظام تبرر تقييد الحوار.. وإن اختلف أسلوب التعامل من عهد عبدالناصر إلى عهد السادات. ؤؤ

ولا أريد أن أقف عند المقارنة بين العهدين، ذلك لأننى أفكر فى الحاضر، وما أكتبه عن أيام عبدالناصر وأيام السادات، مقصود به أيام مبارك، ولأقول بوضوح: إن استراتيجية الأمن لاتحقق أمنا إذا ما كانت قيدا على حرية الرأى، وإذا تدخلت فى حوار المثقفين لتفرض عليه مسارا معينا يرضى عنه النظام أو يرتاح له الحاكم، وأسبقية الأمن على حرية الفكر لم تحقق الأمن للنظام الناصرى فى يونيو ١٩٦٧.. ولم تحقق الأمن للحاكم فى ٦ أكتوبر ١٩٨١، ولقد انشغلنا بالمقارنة التاريخية بين العهدين ـ عبدالناصر والسادات ـ وهى مقارنة عقيم إذا لم تؤد إلى فهم الحاضر.

وأذكر خطابا للكاتب الانجليزى «ديزموند ستيوارت» كان قد أرسله إلى ناشر أمريكى يتحدث فيه عن مشروع دراسة يريد أن يكتبها عن عهد عبدالناصر مقارنا بعهد السادات، ولقد ترك «ديزموند» نسخة من هذا الخطاب «التقرير» مع أوراق أخرى، وبعد وفاته جاء فى وصيته انه يترك لى أوراقه وما أريد أن احتفظ به من كتبه فى مسكنه بشارع يوسف الجندى بباب اللوق، ولكنى

لم أذهب لأحضر مع مندوب السفـارة الانجليزية تنفيذ الـوصية فى شقتـه، واكتفيت بما لدىّ من أوراق، وأجـد أن هـذا الخطاب الـذى أرسلـه «ديزمـوند» إلى النـاشر الأمريكى عـام ١٩٧٦ فيه رؤيـة ـ أجنبية ـ جديرة بأن نتأملها.

عزيزى كارل ..

مصر تقوم بتشريح جثة عبدالنـاصر. قرأت فى مجلة «كل شىء» الأسبوعية اللبنانية مقالا بعنوان: «عبدالناصر، قاض أم متهم»، وفى المقال ملاحظتين تثيران الاهتمام، فلقد ظهر حتى الآن فى مصر أكثر من سبعـة وثلاثين كتابـا عن عبـدالناصر، تهاجمه أو تدافـع عنه، وذلك خلال العام الماضى فقط، وهذا يـدل على أن هناك أخيرا نوعا من حريـة الصحافة، فصحيفـة «الأخبار»، ولها ميول غـربية وهى أقـرب إلى أسلـوب «الـديلى اكسبريس»، استطـاعت أن تتفـوق على صحيفة «الأهـرام» التى أصبحت مملـة منذ أن تركهـا هيكل، بينما يتصاعـد توزيع «روزاليـوسف» التى تمثل الفكر اليســارى وتضم أفضل الكتاب والـرسامين ـ فى رأيى ـ فارتفع التـوزيع من خمسة آلاف إلى مائة وعشرين ألفا فى الأسبوع.

وعمليـة تشريح عبـــدالنـاصر أثـــارت اهتمامى، لأن هنـــاك آراء متضاربة حـول حكم عبدالناصر الذى دام ثمانية عشر عـاما، وهذا التضارب يدل على أن هناك أعـراضا للتغيير تستحق أن أكتب عنها مقـالى السنوى، وربما بـدأت مقالى بأن أسجل مـوقفى الشخصى، لقد جئت إلى مصر عـام ١٩٥٧ لأقابل عبدالناصر ونـاقشت معه فى جلسة دامت أربع ساعات أفكاره الرئيسية.

ومنـــذ ذلك الـــوقت ارتبطت حيـــاتى بمصر التى أممت قنـــاة السـويس، وبعد أن قضيت قبل ذلك ثمانيـة أعوام فى العـراق التى هى شبـــه إقطـاع، وقمت بتأليف بعض الكتـب، وتـرجمت روايتين

مصريتين ـ «الأرض» للشرقاوى و«الرجل الذى فقد ظله» لفتحى غانم ــ وعاصرت فى مصر أيام عبدالناصر الوحدة والانفصال مع سوريا وحرب اليمن.. وأيقنت أن أحسن النوايا التى يضمرها الحكم العسكرى تنتهى إلى عدم الكفاءة والقهر.

ولقد عبرت عن مشاعر الإحباط فى كتابى «معبد جانوس» الذى صدر فى حياة عبدالناصر، ولكن إعجابى كان واضحا ومستمرا بالانجازات الإيجابية التى حققها عبدالناصر مثل السد العالى.. والحد من سطوة الإقطاع والتصنيع والقوانين الاشتراكية، وإحياء الشعور بالكرامة والهدف الوطنى لمصر.. وسوف يكون الموضوع الرئيسى لمقالى تحليل أو وصف مايجرى فى مصر معتمدا على مقتطفات من هذه المجموعة من العناوين التى تناولت عبدالناصر.. ابتداء بتلك التى تندفع فى أحضان الغرب إلى المعتدلين سواء الذين يؤيدون أو يعارضون عبدالناصر، إلى الذين أقاموا معبدا لعبادة عبدالناصر.

ولعل أحد الكتب التى أثارت الاهتمام هو كتاب «أسرار خلف الأسوار» للكاتب جلال الدين الحمامصى، ولقد باع ثمانين ألف نسخة، وأثار جدلا وخصاما حول مازعمه أن عبدالناصر هرب خمسة عشر مليون دولار إلى الخارج، ويذكر نقطة هامة وهى أن الخطأ الرئيسى لعبدالناصر انه حرم الشباب المصرى من ذاكرته التاريخية، وكأن تاريخ مصر بدأ فى يوليو ١٩٥٢، والحمامصى الآن وأثناء كتابة هذا الخطاب وسط عاصفة عاتية. أما «روزاليوسف» فهى مع عبدالناصر، وقد نشرت حلقات عن عبدالناصر تشعر بصدق وشفافية كاتبها..واسمه محمود الجيار، أحد رجال عبدالناصر وإن كانت لا تخلو تعليقاته من السذاجة.

وأريد أن أختتم مقالى بأن أوازن بين المناخ الحالى الذى يسمح

بهذا الجدل والفساد الذى يستشرى حاليا والتضخم، وفقدان المصريين للهدف الذى كان يدعوهم إليه عبدالناصر، إن كل طائرة وكل سفينة تغادر مصر فى هذه الأيام تحمل معها مهاجرين، إنهم يصوتون بأقدامهم التى تغادر مصر.. مارأيك..

المخلص ديزموند

لقد سمحت لنفسى بنشر هذا الخطاب الخاص، لأنى أريد أن أدعو القارىء إلى أن يخرج من دوامة المقارنة ليوظفها فيما هو مفيد. أى فى استخلاص الدروس التى تفيد فى مواجهتنا لمشاكل الحاضر والمستقبل، فالقضية ليست فى مدح عبدالناصر وتأييده إلى درجة العبادة والتأليه.. أو الهجوم عليه للقضاء على كل ما يذكرنا به.. أهم من ذلك هو النظرة الناقدة الفاحصة التى تعترف بزعامة الرجل وإنجازاته، وتبحث فى نفس الوقت عن أسباب الخطأ، تناقشها بموضوعية من أجل الحاضر وليس من أجل إصدار أحكام على الماضى، وهذا أيضا لابد أن ينطبق على عهد السادات، إذا أردنا أن نستفيد فى فهم حاضرنا.

ولنتخلص من الحيرة التى تواجه شبابنا وهو يفكر فى المستقبل، وبهذه المناسبة، أريد أن أشير إلى خطاب من نوع آخر، كتبه وأرسله إلى صحفى شاب كان يبدأ حياته الصحفية بدأب ونجاح، ولكنه كان ـ منذ ثلاثين عاما ـ فى حيرة تامة، يحمل معه أسئلة تبحث عن إجابات.

ولقد وصل هذا الصحفى فيما بعد إلى رئاسة التحرير فى عهد مبارك، ولنقرأ خطابه، لنرى العناصر التى تتكون منها القيادات الصحفية فى ظل استراتيجية «الأمن فوق الثقافة وحرية التعبير».

عزيزى الأستاذ فتحى..

لا أدرى ، هل من الجائز أن أكتب لك خطابا، ينشر ويقرأه

النـاس، وقد قلت لنفسـى، ولم لا! إننى لا أكتب لـه خطابـا خاصـا أطلب فيه لنفسـى عـلاوة، ولا أشرح أزمة عاطفيـة أعيش فيها، إننى أسجل فى كلمات قليلـة حيرة أحسهـا وتعـذبنـى.. فهل تسمح لى «بالفضفضة»؟!

ياعزيزى الأستاذ فتحى.. أحيـانا أشعر أن ما نكتبه مجرد ملء صفحات لنقبض مرتباتنـا فى نهاية الشهر، إن شعورا يسيطر علىّ، أننى وزمـلائى «عبيد» للمطبعـة.. يثـور سؤال يعـذبنى: هل نكتب مـانريـده، نحن، أم نكتب مايـريده النـاس.. هل الصحافـة عنصر إعلامى يؤثر حقيقة فى النـاس؟ هل له فى بلدنا «سلطان» كبير؟ هل يهتز المسئول عندما نكتب شيئا نـدينه به.. و.. هل تعتبر الدولة أن ما نقدمه مـن وثائق ومعلومات.. له وزنه؟ هل ينظـر إلينا كبضاعة أم كرسالة؟!.. كتبنا حتى تعبنا، حتى أرهقنا.. ثم مللنا.

والسؤال: هل من الطبيعى أن «نكبت» هذه المشاعر ونستمر.. أم نتوقف فورا.. وهل التوقف يعتبر جريمة أم تكاسلا أم إهمالا..

وإذا كنت جريئا فيما أكتب، فما حدود هـذه الجرأة؟ ما حدودها فى التحقيق أو التعليق.. أو حتى الخبر الصغير؟ هل الجرأة أن أذكر كل مـاعندى لأكون صـادقا مع نفسـى ومـع القراء.. حتى لـو كان مـاأذكـره هذا يمس «الأشخـاص» أم أن لـلأشخص.. شخصيـات اعتبارية. بعضها بأسلوب مؤسسة السينما ـ حرف «أ» ـ وبعضها حـرف «ب».. وأخـرى حـرف «ى».. هل أكـون كـذابـا مع نفسـى وصادقا مع الناس..هل ألف وأدور، هل أتذاكى.. هل أستعبط.. هل أسكت.. هل أغامر. هل.. هل.. هل؟!

أرجـوك لا تحذف كلمـة واحـدة ممـا كتبـت، إنس أنك رئيس تحرير.. اعتبر نفسك زميلا فى الحيرة كصـاحب تجربة أكبر، وربما

هـذه ليست حيرتى وحدى، ربما كـانت حيرة زمـلاء آخرين، كلنـا نمسك بالقلم، هذه صناعتنا، نحن نحبها ونريد أن نصنع شيئا..

المخلص مفيد فوزى

وقـد نشرت الخطاب كـامـلا فى «صباح الخير» الصـادرة فى ٢١ مـايـو ١٩٦٤.. وظلت هـذه الأسئلة وغيرهـا تتردد عنـد المشتغلين بالكتابة فى كل العهود، أحيـانا تبلغ الحيرة ذروتها، وأحيانا يبدو فى الأفق نـور حريـة مقبلـة.. يستقبلها الكتـاب والصحفيون بتفـاؤل مشوب بـالحذر، كما يقولون فى لغة الـدبلوماسيـة.. ذلك لأن المناخ السائد هو أن الأهم هو الأمن.. أحيانـا يكون الأمن القومى، وأحيانا أمن نظـام، وأحيانـا أمن حـاكم.. وأحيـانا أمـن أجهزة أو تيـارات تتصارع داخل السلطة، خـاصة فى مرحلة انتقـال السلطة أو توقع انتقالها.

وفى ظل استراتيجيـة الأمن بهذا المفهـوم الشـامل، لا تتـوافـر الفرصـة لنضج الأفكار، وممـارسة الثقـافة بمعنـاها الحقيقى، أى التعـرف الموضـوعى والنقدى على المشـاكل والأزمـات، واكتشـاف وسـائل العـلاج وأسـاليب التحدى النـاجح لـلأزمـات، لأن عملية الاكتشاف تحتاج إلى تفكير وإمعان فى الخيال، وتضارب فى التقدير، ومقارنـة بين موقف وآخـر، وقبول الـوقوع فى الخطأ وفتـح أبواب الجدل والنقاش حتى يتبين الصواب من الخطأ وتنسجم التصرفات وأنواع السلوك بما استقر فى الضمائر واقتنعت بـه العقول، للأسف لم تتح للمثقفين من أهل الكتابـة الفرصـة التى يستحقونها للتعبير عن أنفسهم أو اكتشـــاف ذواتهم، أو مجرد التسجيل النقـدى لما يجرى فى مجتمعهم. ولقد كانت تجربتى فى منتصف الثمانينات مع الرقابة لها دلالتها البالغة الخطورة.



استراتيجية أمن أشهرت إفلاسها

❞ تجربتي مع رقابة التليفزيون لرواية الأفيال، هي التي كشفت عن إفلاس استراتيجية الأمن في مواجهة حرية التعبير والثقافة..بل - وهذا هو الأخطر - في مواجهة متطلبات الأمن ذاتها! ❝

ولقد كنت متحمسا لتقديم الرواية إلى التليفزيون المصرى.

وكنت سعيدا باتصال الصديق ممدوح الليثى بى، وحرصه على أن نلتقى فى الإسكندرية ليتفق معى على إعداد الأفيال كمسلسل للتليفزيون المصرى.

وزاد من حماسى أن الفنانة سهير رمزى كانت تريد إنتاج الرواية بعد نجاحها فى «زينب والعرش». فأعلنت فى الصحف أنها سوف تقدم الأفيال، لكن ممدوح الليثى اتفق معى على أن موضوع الرواية يثير قضايا هامةجديرة بأن يتولاها التليفزيون المصرى، فقلت له: إن هذا يسعدنى، لأنى فى الحقيقة أرى أن تناول التليفزيون المصرى لرواية تناقش الإرهاب والتطرف والانهيارات الاجتماعية فى البيت والمدرسة وتأثيرها على حالة الشباب وما ينتابه من عنف، يعطى للقضية ماتستحقه من اهتمام، كما أنه يحمل معنى أصيلا، وهو أن نقد المجتمع، ونقد السلطة التى ساهمت بأخطائها فى تصاعد العنف والتطرف، إنما هو نقد صادر من تليفزيون مصر، ولا يحمل أى معنى للتشنيع أو نشر ثيابنا القذرة فى الخارج، بل نحن الذين نواجه أنفسنا بأنفسنا، ونبحث فى مشاكلنا ونتصدى لها بإرادتنا.

وكان التليفـزيون المصرى فى ذلـك الوقت قـد واجه أزمـة عنيفة أثناء عرض مسلسل لمصطفى أمين اسمـه «صاحب الجلالة الحب»، فقد سمعنا عن أصوات احتجاج تصـاعدت لأن مشاهد المسلسل لم تقدم القوات المسلحة فى الصورة اللائقـة بها قبل وبعد ثورة يوليو، وتـدخل رئيس الوزراء الـدكتـور فؤاد محيى الـدين ليعيـد رقابـة المسلسل.

وحـدث أن كان على مـوعـد للقيـام بزيـارة رسميـة فى الخارج، فطلب إحضـار حلقات المسلسل التى لم تـذع وراجعها بسرعـة ثم طلب اختصارهـا فى ثلاث حلقات ليطمئن إلى أن أصـوات الاحتجاج لن ترتفع أثناء سفره، وكـان ممدوح الليثى يقول لى: سوف نعوض ماحدث لصاحبة الجلالة فى مسلسل الأفيال، فاستنتجت من كلامه، ومن رغبته فى إعداد الأفيال، أن هناك سياسة جديدة للإعلام، تفتح الأبـواب للتعبير ولمعالجة القضـايا الهامـة التى تنـاقش مسئوليـة السلطة كما تنـاقش مسئوليـة الأفراد فى المجتمـع دون أن تتعرض لتدخل من الرقابة.

وكتبت سيناريو الأفيـال ورحب به ممدوح الليثى وتحدث معى أكثـر من مخرج كبير عن اتصـالات تمت معه ليتـولى الإخـراج، ثم استقر الرأى على أن يتولى الإخراج إبراهيم الصحن الذى اتصل بى ليخبرنى أن الرقـابة بعد أن أجـازت الرواية، وتم طبع السينـاريو، عادت واعترضت على الرواية.

وقرأت تقريـر الرقيب«على الزرقانى» فوجدت عجبـا، إنه يرفض أن تتناول الأفيال الجماعات المتطرفة، إنه يرفض أن تتناول الأفيال التطرف الدينى، لماذا لايكون البطل مدمن هيروين وليس متطرفا أو إرهابيـا ، تقرير يجمع بين الجهل بالأدب، والتملق الـزائف والمبالغ فيـه لتعليمات الـرؤساء «المجهـولين» الـذين طلبـوا الاعتراض على

الرواية التى طلبها التليفزيون وسعى إلى تقديمها وعرضها.

وذات يوم اتصل بى ممدوح الليثى، وطلب منى أن أسرع إليه فى مكتبه، لماذا ياممدوح؟ قال ضاحكا: لأن ضباط الشرطة يحاصرون مكتبى وسوف يقبضون على بسبب روايتك، وذهبت إلى التليفزيون، وهناك قابلت ضابطين كبيرين، بلغهما أن التليفزيون يعد رواية الأفيال، ثم بلغهما أن الرقابة تعترض، فجاءا إلى التليفزيون ليعلنا أن الأمن مهتم بعرض المسلسل دون تدخل من الرقابة، ثم كان لقاء مع اللواء فؤاد علام وكان المسئول عن الجماعات المتطرفة فى ذلك الوقت، وقال لى: إنه حريص على عرض المسلسل، ليرى الشعب كيف يتحول الشباب إلى التطرف والعنف، وقال: إن مثل هذا المسلسل يوفر على أجهزة الأمن العمل فى الشارع المصرى لستة شهور كاملة، لأن الوعى مطلوب وأصبح ملحا وضروريا قبل أن يستفحل الأمر!

كانت هذه هى المرة الأولى التى أواجه فيها موقفا، يعلن فيه «الأمن» أنه يحتاج إلى نشر «الوعى» لأنه الوسيلة لتحقيق الأمن، استمعت إلى كلام اللواء فؤاد علام فى مكتبه بوزارة الداخلية، وشريط من الذكريات يجرى محموما فى رأسى، عن الأيام التى كنت أسمع فيها أن الأمن يبدأ بالقوات المسلحة، ثم الشرطة، ثم الإعلام، أما الثقافة فيأتى أمرها فى ذيل قائمة طويلة من قضايا اقتصادية واجتماعية و.. و..

وعندما قال لى ممدوح الليثى ومعه إبراهيم الصحن :إن السيناريو سوف يتم تصويره بلا تعديل أو حذف، شعرت أن تحولا حقيقيا يحدث فى مصر، إننا نريد أن نصنع أمننا بالوعى والثقافة، قبل أن نصنعه بالبندقية والمدفع، والثقافة هى التى تهيىء لنا العقول القادرة على حفظ الأمن سواء أكان أمن الخارج

أم أمن الداخل، فلم تعد القوة هى التى تفـرض كلمتها على الثقافة، بل أصبحت رسالة الثقافة هى الضوء أوالنور الذى يكشف الطريق للجميع، لأنه ينير عقول الجميع!

وفجأة أنطفأ النور، فقد صدرت الأوامـر بحذف ما تم تصويره، ولم يكتف الرقيب بـالحذف ، بل أمر بحـرق ماتم تصـويره، لماذا؟ ماالسبب؟.. لأن دولا عربيـة اشترت المسلسل واعترضت على مافيه من قضايا تطرف وإرهـاب، اشترت المسلسل وقررت حذف وحرق ساعـات كاملة من التصـوير، والتليفـزيون المصرى يبيع ويخضع لرغبات المشترين، دنانيرهم أهم مـن طلبات أمن الداخلية، وسمعت كلامـا واضـحا يبرر الحذف: إننا لانستطيع أن نأخذ بكـلام يصدر من الداخلية، لأنهم ـ بما فيهم وزير الـداخلية نفسه ـ لايستمرون فى مناصبهم.. والزبائن الذين اشتروا أهم وأبقى!.

والمدهش حقـا أن وزير الـداخليـة فى ذلك الوقت سقط بسرعـة، وفـؤاد عـلام نفســه انتقل إلى مكـــان آخـر، وكتبت عـدة مقـالات وأحاديـث صحفية عن هـذا الأمر، ولا أحـد يهتم ولا أحد يـريد أن يهتم أو على الأصح لاأحــد يجرؤ على أن يهتم، بينما استراتيجيـة الأمن تنهار وتشهـر إفلاسها أمـام استراتيجية الدنانير والـريالات والدراهم، وتيار بشرى مندفع إلى منـابع الثروة لايريد سوى المال، يبيع مـذهبه الدينى، يتخلى عـن تقاليد مصر فى الأخـذ بإجماع أهل السنـة ورفض التحيـز لـلآراء والفتـاوى الخلافيـة التى لم يجمع عليها أهل السنة، ويبيع تاريخ مصر.

كما حـدث أن طـالب أستـاذ جـامعى مصرى بشطـب تـاريخ الحضارة الفرعونية من برنامج التدريس فى جامعة بالسعودية ظنا منـه أنه سـوف يكسب حظـوة ومالا، لـولا أن شاءت الظـروف أن أساتذة سعوديين درسوا فى جامعات أمـريكا رفضوا دعوته ونبهوه

إلى أن التاريخ علم ودراسة الحضارات علم لاغنى عنه.. فذهب الأستاذ المصرى يبحث - باسم حماية الدين من تاريخ الفراعنة - عن الذى يؤيده ويمنحه الحظوة والمال.

وخلال الثمانينات، وبينما كانت سياسة مصر تركز على مواجهة الأزمة الاقتصادية من ناحية، وتعمل على إعادة العلاقات المقطوعة مع الدول العربية من ناحية أخرى، كانت استراتيجية الأمن تفقد وظيفتها، والعقول المصرية المشغولة بالاقتصاد تفتقد ثقافتها، والاندفاع إلى الدنانير له رد فعل مضاد يهاجم المصرى والمصرية ويدعم نظرة الاستعلاء على العقول التى تبيع مالديها، بعد أن أصبحت فارغة تعيش تحت رقابة حماية الأمن وتوجيهاته وتعليماته ورقابته.

وكان لابد أن تحدث اغتيالات وانفجارات، لأن فراغ العقول، يجلب على الفور ريحا تهب لتملأ الفراغ، تمثل قوى غاشمة أو غشيمة.. شديدة الفظاظة والتوحش، لكنها - كما يقول لنا التاريخ - تمثل طاقات جديدة كلها حيوية وعنف، تبحث عن ثقافة حقيقية، وتفاعلات تساعد على إنضاجها، فإذا لم تجدها فلابد أن تدمر ماحولها ثم تدمر نفسها.

وهكذا وجدنا أنفسنا فى وقت متأخر نبحث عن الثقافة، وحرية التعبير، وانطلاق الإبداع والفكر، وندعو إلى التنوير وإلى إعادة النظر فى الرقابة وقيودها، ولابد أن يتطور البحث إلى معركة جادة يخوضها المثقفون مع أنفسهم ومع مؤسسات الدولة لإعادة النظر فى استراتيجية الأمن التى أفلست منذ سنوات وماتت دون أن يعلن أحد وفاتها، بينما الأحداث تؤكد كل يوم أن نور العقل هو الوحيد القادر على فتح طريق السلامة أمامنا، وبغير العقل نمضى فى طريق الندامة أو الطريق الذى نذهب فيه فتكون نهايتنا ولا نعود.

إن أجهزة الأمن لاتحمى الثقافة ولا تصنعها، والأمن القادر على تأدية وظائفه، يحتاج إلى الثقافة ترشده وتنير له الطريق، أما إذا خضعت الثقافة للأمن فهى تضيع وتملأ فراغها بالضرورة قوى جديدة، تدمر إذا لم تتعلم، وهى لن تتعلم باستراتيجية تجعل الثقافة خاضعة للأمن، ولن تتعلم إذا لم ندرك أنها فى جوهرها نتيجة فراغ تسببنا فى حدوثه، فهو ليس من صنع الأقدار وليس حتما تاريخيا، ولن نتعلم إذا لم نتبصر بما تمثله من جديد مغمور وكامن فى أعماقها، ومهما كان الأمر فإنهم بشر ومسئولية المثقفين أن يكتشفوا أصالتهم وفطرتهم السليمة، قبل أن يكتشف رجال الأمن ترسانة السلاح والمتفجرات.



مهرجان القراءة للجميع ٩٥

مكتبة الأسرة

الطبعة الثانية

اضخم مشروع عرفته مصر لتقديم الثقافة الحقيقية والرفيعة من خلال الكتاب لجموع المواطنين باسعار رمزية تشترك فيه عدة جهات .. هي :

★ جمعية الرعاية المتكاملة ★ وزارة الثقافة ★ وزارة التعليم

★ وزارة الحكم المحلي ★ وزارة الاعلام المجلس الأعلى للشباب والرياضة

★ وتقوم على تنفيذ المشروع الهيئة المصرية العامة للكتاب

بناء على رغبة الجماهير وبعد النجاح الساحق لسلسلة مكتبة الاسرة وبناء على توجيهات اللجنة العليا للمهرجان برئاسة السيدة سوزان مبارك تقرر طرح طبعة ثانية من جميع كتب سلسلة مكتبة الأسرة بفروعها الثلاثة هي :

اولا : تراث الانسانية :

وتضم الكتب الاصيلة التي عاشت وبها الاجيال السابقة وشكلت مسيرة حضارة الانسانية على مر العصور بسعر ٢٥ قرشا فقط للنسخة الواحدة

ثانيا : الاعمال الابداعية من روائع الادب العربي .

والتي جادت بها الاقلام الشوامخ من كبار أدباء مصر والعالم العربي بسعر النسخة جنيه واحد لا غير

ثالثا : الأعمال الفكرية من روائع الفكر العربي :

وهي الكتب التي تضم الفكر الخلاق الصحيح الذي واكب مسيرة مصر والوطن العربي لكبار الكتاب بسعر النسخة جنيه واحد لا غير . وتصل الكتب يوميا وتباعا من المطابع لمنافذ البيع مع جميع باعة الصحف في فروع هيئة الكتاب بالقاهرة والمحافظات .

اولا : تراث الانسانية سعر النسخة ٢٥ قرشا

اسم الكتاب
- البحث عن اليقين
- حي بن يقظان
- السيرة النبوية
- الامتناع والمؤانسة
- الموسيقى الكبير
- دعب مع الريح
- الصناعتين
- مذهب الذرات
- عجائب المخلوقات
- ضحى الاسلام
- القلق
- فتوح مصر
- طبقات الشعراء
- تاريخ الأمم والملوك
- نقد العقل
- الاستيفاء
- الرسالة
- روح القوانين
- العقد الاجتماعي
- البراجماتية
- الحكايات
- نافذة على المسرح
- فن الشعر
- مابعد الطبيعة
- نظرية تركيب الذرة
- محاورات سقراط
- مخطط تاريخ تقدم العقل البشري
- سيرة عنترة
- عن الحرية
- الخطط التوفيقية
- سيرة الأميرة ذات الهمة
- النظرية الميكروبية للمرض
- القضية
- موطأ مالك
- سيرة بني هلال
- الجامع لمفردات الادوية والاغذية
- حكايات شوقي
- ظاهريات الفكر
- فن التربية الجمالية
- كونفوشيوس
- الصماد ع
- معجم الأدباء
- شرح سيليزية
- الالياذة
- الليالي
- أوديب ملكا
- القانون
- مذكرات رحلة حول العالم
- الافادة والاعتبار
- سراج الملوك

ثانيا : الاعمال الابداعية من روائع الأدب العربي سعر النسخة جنيه واحد لاغير

اسم المؤلف
- توفيق الحكيم
- يحيى حقي
- محمد عبدالحليم عبدالله
- يوسف السباعي
- احسان عبدالقدوس
- محمود تيمور
- ابراهيم المازني
- احمد شوقي

اسم الكتاب

يوميات نائب في الارياف
صح النوم
شجرة اللبلاب
نائب عزرائيل
حائر بين الحلال والحرام
بيت الشيطان
صندوق الدنيا
من روائع احمد شوقي

اسم المؤلف
- حافظ ابراهيم
- مصطفى لطفي المنفلوطي
- يوسف ادريس
- سعد مكاوي
- يوسف الشاروني
- محمد حسين هيكل
- من روائع الشعر
- أحمد عبدالمعطي حجازي

اسم الكتاب

من روائع حافظ ابراهيم
العبرات
الحبيب
السائرون نياما
العشاق الخمسة
هكذا خلقت
اشعار مصرية
شعراء الوجدان

ثالثا . الاعمال الفكرية من روائع الفكر العربي

اسم المؤلف
- جمال حمدان
- زكي نجيب محمود
- مصطفى صادق الرافعي
- جمال بدوي
- عباس محمود العقاد
- سلامة موسى
- خالد محمد خالد
- أمين الخولي

اسم الكتاب

شخصية مصر
رؤية اسلامية
اوراق الورد
مصر من نافذة التاريخ
عبقرية عمر
هؤلاء علموني
معا على الطريق
من هدى القران

اسم المؤلف
- أحمد بهاء الدين
- سليمان حزين
- د . عبدالله شحاته
- بنت الشاطئ
- فرج انطون
- صلاح عبدالصبور
- طه حسين

اسم الكتاب

ايام لها تاريخ
حضارة مصر
اركان الاسلام
صورة من حياتهن
الدين والعلم والمال
حياتي في الشعر
الوعد الحق

مكتبة الأسرة أروع ماقدم رواد الفكر والأدب للبشرية

مع تحيات اللجنة العليا لمهرجان القراءة للجميع

هـذا الكتـاب

هذه المعركة حدثت فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات.

فمنذ قيام الثورة فى يوليو ١٩٥٢ - كما يروى فتحى غانم فى هذا الكتاب - وضع جمال عبدالناصر هدفا محددا.. وهو السيطرة على عقول المصريين.. ولم يكن يستطيع تحقيق غرضه إلا بترويض المثقفين أولاً..وخاصة الصحفيين..

وقداستخدم عبدالناصر فى هذه المعركة الشرسة مع المثقفين كل الأسلحة المتاحة والمتوفرة للدولة والثورة من أجهزة المخابرات والمباحث والتنظيم السرى أو الطليعى.. وقد بلغ من قدرة التنظيم الطليعى أنه يمكنه إطلاق إشاعة فى القاهرة تنتشر من الإسكندرية إلى أسوان خلال ساعة واحدة!!

وقد نفذ صبر عبدالناصر من الصحافة والصحفيين الذين قاوموا كل الأسلحة والأجهزة بهدف ترويضهم والسيطرة عليهم.. فأصدر أخيرا قرارا بتأميم الصحافة فى مايو ١٩٦٠.. ومنذ ذلك التاريخ انتهت الملكية الخاصة للصحافة وانتقلت ملكيتها إلى الشعب الذى كان يمثله فى ذلك الوقت الاتحاد القومى!!

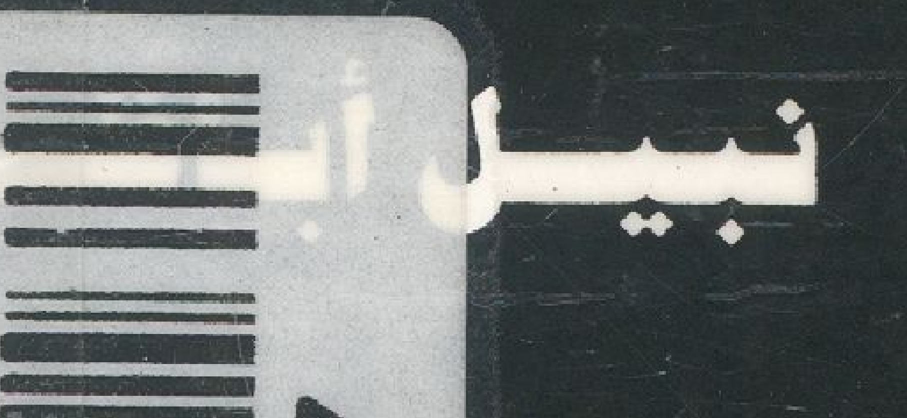
ولم تكتفى الثورة بالاستيلاء على الصحافة.. بل امتدت المعركة إلى الأدباء والمفكرين.. لترويضهم كما تم ترويض الصحفيين.. وذلك لوضع الصحافة ثم الأدب تحت سيطرة الأمن.. وخيم مناخ القهر على المثقفين للاشتباه فى عدم ولائهم للثورة!!

وفتحى غانم كان شاهدا على كل وقائع معركة الترويض.. كان رئيسا للتحرير.. وفى نفس الوقت أحد الشخصيات البارزة الذين اختيروا للانضمام للتنظيم الطليعى.

وإلى جانب أنه صحفيا كبيرا.. فإن فتحى غانم أديب وروائى حساس كتب عشرات الروايات التى أثارت ضجة منها «الأفيال» و«زينب والعرش».. وقد حصل فتحى غانم عى جائزة الدولة التقديرية هذا العام.. وقد تأخر حصوله على هذه الجائزة ربما بسبب مواقفه الشجاعة التى جعلته شهيدا.

وهذا الكتاب الخطير يروى فيه فتحى غانم وقائع المعركة التى حاولت فيها الدولة ترويض المثقفين وخصوصا الصحفيين.. وقد نشر فتحى غانم فصول هذا الكتاب من قبل فى مجلة روزاليوسف ولم يعترض أحد على أية واقعة من وقائع هذه المعركة التى انتهت بهزيمة عام ١٩٦٧.. وهزيمة الثقافة.. وأصبحت العقول فارغة.

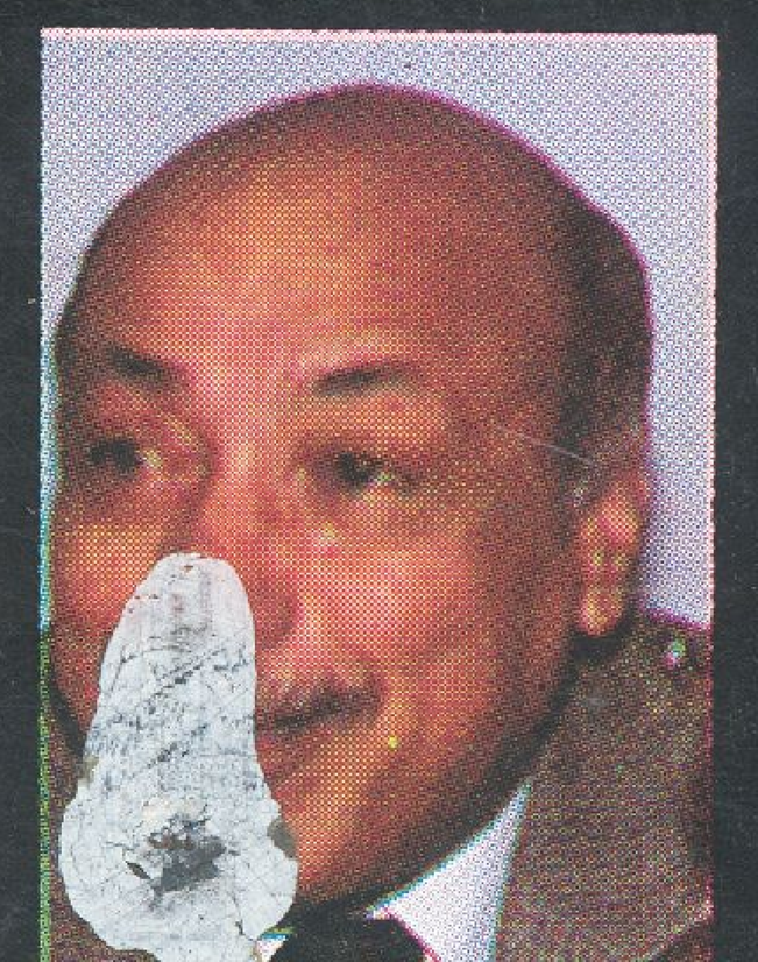
نبيل أب...



الثمن ٤ جنيهات







طبع بمطابع دار أخبار اليوم